مجلة الدراسات الإسلامية، المجلد 34، العدد (1)، ص ص 17 - 54، الرياض (2022م/ 1443هـ)

إعجاز القرآن عند الزركشي في البرهان «دراسة استقرائية تحليلية»

وفاء بنت عبد الله بن عبد العزيز الزعاقي[1]

جامعة الملك سعود

(قدم للنشر في 15/ 03/ 1443هـ؛ وقبل للنشر في 25/ 04/ 1443هـ)

المستخلص: أدرج الزركشي موضوع إعجاز القرآن ضمن مباحث علوم القرآن في كتابه البرهان في علوم القرآن وضمنه عددا من المسائل المتعلقة بإعجاز القرآن وقد تم إعداد دراسة (إعجاز القرآن عند الزركشي في البرهان دراسة استقرائية تحليلية)، بهدف تحقيق ما يأتي: تحليل موضوع إعجاز القرآن عند الزركشي في كتابه البرهان. والكشف عن أوجه التداخل بين علم الكلام والدراسات القرآنية في مبحث الإعجاز. وبيان الأوجه التي قررها الزركشي في مبحث الإعجاز تبعًا لمنطلقات الأشاعرة الفكرية. والسعي لبيان موضوع الإعجاز بصفته أحد مباحث علوم القرآن، دون الإغراق في البحث العقدي. وكان منهج البحث المنهج الاستقرائي والتحليلي. ومن أبرز النتائج: تأثر الزركشي بالاتجاه الأشعري في مسائل إعجاز القرآن. أن مدار العجز عن مماثلة القرآن هو عظمة كلام الله وليس مداره كلام المكلفين. أن شروط المعجزة عند الأشاعرة لوازم لا دليل عليها، وأن نزول القرآن بلسان عربي مبين من رحمة الله وليس لإعجاز العرب. أن حجية القرآن الكريم أعمُّ من مفهوم إعجاز القرآن. غياب تعريف إعجاز القرآن عند الزركشي. أن عجز العرب عن المعارضة ليس حجة على غيرهم، فطلب المماثلة من كل من ادعى أن القرآن مفترى مطالبة واردة في آية محكمة، والعمل بها باقٍ مادامت شبهة الافتراء باقية ومتجددة في كل عصر. وأهم توصيات الدراسة: إعداد دراسة خاصة بإعجاز القرآن كمبحث من مباحث علوم القرآن. إعداد مشروع بحثي في تحقيق كتاب البرهان في علوم القرآن. تطوير مناهج البحث في علوم القرآن. العناية بالدراسات النقدية لكتب التراث. العناية بتأصيل منهج البحث البيني في الدراسات القرآنية من خلال كتاب البرهان للزركشي.

الكلمات المفتاحية: إعجاز القرآن، الزركشي، علوم القرآن، التحدي، أوجه الإعجاز.

Miracles In Quran According to Al-Zarkashy's (Al-Burhan) An Inductive Analytical Study

Wafaa bint Abdullah bin Abdulaziz Al-Zaqqi[1]

King Saud University

(Received 21/10/2021; accepted 30/11/2021)

Abstract: In his book, Al-Burhan fi ulum al-Qur'an, Al-Zarkashy included a study related to Miracles in Quran in Quran Science section. In the light of his study this research (The Mircle of the Quran according to Al-Zarkashy; Inductive Analytical Study) was conducted with the following objectives: Analysis of Miracles In Quran According to Al-Zarkashy's "Al-Burhan", detection of overlaps between the Creed of Islam 'Aqidah' and Quranic studies in the study on Miracles In Quran, demonstration of aspects determined by Al-Zarkashy in his study on Miracles In Quran in accordance with Ash'aris' ideological basis, and presentation of Miracles in Quran as a topic related to Sciences of Quran without delving into the doctrinal research. Firstly, I adopted the inductive method regarding Miracles in Quran by Al-Zarkashy. Afterwards, I employed the analytical method while tackling his decisions. Eventually, the following findings are reached: Al-Zarkashy has been influenced by Ash'aris' approach and has adopted Al-Baqillani's sayings with respect to questions related to Miracles in Quran. Moreover, the core point explaining failure to bring an equivalent to the Qur'an, is the superiority of the word of Allah, to have any equals or rivals, furthermore, no comparison between the Creator's speech and the creature's. Additionally, no evidence supporting Miracles requirements among Ash'aris, and the fact that the Qur'an has been revealed in Arabic is an evidence of Allah's mercy not a miracle for Arab. In conclusion, the Holy Qur'an is broader than the notion of miracles in Qur'an.

Keywords: Miracles al-Qur'an, Al-Zarkashy, al-Qur'an Sciences , Challenge.

---

(1) أستاذ التفسير المشارك بقسم الدراسات القرآنية، كلية التربية، جامعة الملك سعود.

(1) *Associate Professor of Interpretation, Department of Quranic Studies, College of Education, King Saud University.*

البريد الإلكتروني: *e-mail:walzeage@ksu.edu.sa*

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

يعد إعجاز القرآن من الموضوعات المهمة التي تنوعت طرق البحث فيها، وتعددت اتجاهات العلماء ومنطلقاتهم الفكرية في تقرير مسائلها، فباتت مباحث الإعجاز انعكاسًا للواقع الفكري لكل عالم. والواقع أن ساحة البحث العلمي تتسع فيها دائرة الاختلاف، ويشوب طرقها التداخل، ولكن يظل لكل علم خصوصيته في طريقة البحث فيه، وله ثوابته ومسلماته التي تحدد أصوله وتضبط فروعه، وتميز بين صحيح مسائله من ضعيفها.

ولما كانت علوم القرآن من العلوم التي اشتملت على مبحث إعجاز القرآن، وهو على الحال الذي وصفنا من تنوع مناهج البحث فيه، وعلوم القرآن له خصوصيته كسائر فروع العلوم جاءت هذه الدراسة تستطلع واقع التأليف في إعجاز القرآن في مصنفات علوم القرآن من خلال موضوع: (إعجاز القرآن عند الزركشي في البرهان دراسة استقرائية تحليلية)، وفق الخطة الآتية:

أهمية البحث:

1- أنه يرتبط بتطوير منهج البحث العلمي في إعجاز القرآن.

2- أنه يبرز التداخل بين إعجاز القرآن وعلم الكلام.

3- أنه يعنى بتحرير مبحث الإعجاز، وإبراز علاقته بعلوم القرآن.

4- أنه يسهم في خدمة مصدر من أهم مصادر علوم القرآن.

مشكلة البحث:

ظهر في مبحث الإعجاز عند الزركشي في كتابه البرهان في علوم القرآن التأثر بالطرح العقدي من جهة، وسلوك منهج الأشاعرة في تقريراتهم العقدية لمسائل الإعجاز من جهة أخرى، وهذه مشكلة معرفية تتطلب معالجة تستنبت المعرفة الصحيحة لتلك المسائل بما يتفق مع معتقد السلف ووفق منهج البحث في علوم القرآن دون إغراق يحيد بموضوع الإعجاز إلى البحث العقدي.

حدود البحث:

الدراسة تقتصر على مبحث إعجاز القرآن في البرهان في علوم القرآن للزركشي.

أهداف البحث:

1- تحليل موضوع إعجاز القرآن عند الزركشي في كتابه البرهان.

2- الكشف عن أوجه التداخل بين علم الكلام والدراسات القرآنية في مبحث الإعجاز.

3- بيان الأوجه التي قررها الزركشي في مبحث

الإعجاز تبعًا لمنطلقات الأشاعرة الفكرية.

4- السعي لبيان موضوع الإعجاز بصفته أحد مباحث علوم القرآن، دون الإغراق في البحث العقدي.

الدراسات السابقة:

لم أقف على دراسة تُعنى بدراسة الإعجاز عند الزركشي إلا دراسة ياسين بن حافظ قاري بعنوان:

إعجاز القرآن الكريم عند الزركشي من خلال كتابه البرهان في علوم القرآن، دراسة وتعليق: وهو بحث محكم ومنشور في مجلة القراءة والمعرفة، جامعة عين شمس، ع111.

والدراسة عُنيت بدراسة الأقوال التي جمعها الزركشي في أوجه الإعجاز والتعليق عليها، مع زيادة أقوال لم يذكرها الزركشي، وقد خلصت الدراسة إلى أن الزركشي ذكر أقوالًا في أوجه الإعجاز لم يسبق إليها، والباحث لم يهدف في بحثه إلى الكشف عن المنطلقات العقدية التي انعكس أثرها عند الزركشي في إعجاز القرآن ومناقشة أقواله في ذلك، كما لم يهدف في بحثه أن يُبيَّن المسائل التي ينبغي أن تطرق عند تقرير مبحث الإعجاز كعلم من علوم القرآن، وهو ما ستضيفه هذه الدراسة على ما سبق.

منهج البحث وإجراءاته:

1- اتبعت المنهج الاستقرائي من خلال عرض مبحث الإعجاز عند الزركشي ووضعت له عناوين جانبيه تعين على تحديد المسائل التي أدرجها الزركشي ضمن مبحث الإعجاز عنده.

2- اتبعت المنهج التحليلي في دراسة أقوال الزركشي.

3- لم أتعرض لتحليل المسائل التي ذكرها الزركشي في مبحث الإعجاز، وليس لها أثر كبير في معالجة مشكلة البحث كموضوع تنزيه القرآن ورسول الله ﷺ عن الشعر ونحوها.

4- وضعت ضوابطَ مقترحةً لمسائل الإعجاز في علوم القرآن، مبنية على الدراسة التحليلية.

5- أحلت إلى البرهان في بداية الدراسة التحليلية، واكتفيت بذلك عن تكرر الإحالة عليه تجنبًا لكثرة الحواشي.

6- أدرجت سنة وفاة العالم عند ورود اسمه أول مرة.

خطة البحث:

- **مقدمة البحث**: وتشمل: أهمية البحث، ومشكلته، وحدود البحث، وأهدافه، والدراسات السابقة، ومنهج البحث وإجراءاته، وخطته.
- **التمهيد**: وفيه بيان الآتي:
  - التعريف بالزركشي (ت: 794هـ)، وكتابه البرهان.
  - التعريف بمعنى إعجاز القرآن.
  - العلاقة بين إعجاز القرآن وعلوم القرآن.

- **المبحث الأول**: عرض إعجاز القرآن في البرهان في علوم القرآن.
- **المبحث الثاني**: تحليل إعجاز القرآن في البرهان في علوم القرآن.
- **الخاتمة**: وفيها: النتائج، والتوصيات.

***

التمهيد

التعريف بالزركشي[1]، وكتابه البرهان:

التعريف بالزركشي:

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي الشافعي يلقب بـ(بدر الدِّين)، وبـ(المنهاجي)؛ لحفظه كتاب (منهاج الطالبين)، وصفه بعض من ترجم له بالإمام، العلامة، المصنف، المحرر، المفسر، كان فقيهًا، أصوليًّا، أديبًا، فاضلًا في جميع ذلك، درّس وأفتى، وولي مشيخة خانقاه، كريم الدّين، وكان منقطعًا إلى التأليف إلى أن توفي رَحِمَهُ اللَّهُ في يوم الأحد الموافق الثالث من شهر رجب المحرم سنة (794هـ).

أشهر شيوخه:

من أشهر شيوخه عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام إمام النحاة في عصره (ت: 671هـ)، والحافظ علاء الدِّين، أبو عبد الله، مُغْلطاي (762هـ)، وسراج الدِّين، أبو حفص، عمر بن رسلان بن نصير البلقيني (805هـ)، عماد الدِّين، أبو الفداء، إسماعيل بن عمر بن كثير (774هـ)، ومحمد بن أحمد بن إبراهيم بن عبد الله المقدسي الصالحي (ت: 780هـ).

من مؤلفاته:

(الإجابة لما استدركته عائشة على الصحابة)، و(البحر المحيط في أصول الفقه)، (شرح البخاري)، و(التنقيح على البخاري)، و(شرح التنبيه)، و(البرهان في علوم القرآن)، و(تخريج أحاديث الرافعي)، و(تفسير القرآن العظيم) وصَلَ إلى سورة مريم.

مذهبه الفقهي وعقيدته:

اتفق مَنْ ترجم له أنه شافعي المذهب، وأمَّا عقيدته فهو أشعري، يدل على ذلك تأويله لبعض الصفات في تفسيره[2]، ومنها صفة الكلام، ونقله عن الباقلاني (ت: 403هـ) تقريراته العقدية في مسائل الإعجاز.

(1) انظر: حسن المحاضرة، للسيوطي (1/ 437)، إمتاع الفضلاء، للساعاتي (2/ 350)، السلوك لمعرفة دول الملوك، للمقريزي (5/ 330)، طبقات الشافعية، لابن قاضي شُهْبة (3/ 167)، والدرر الكامنة، لابن حجر (5/ 133-134)، وطبقات المفسرين، للأدنه وي (1/ 302)، طبقات المفسرين، للداودي (2/ 162)، شذرات الذهب، لابن العماد (8/ 572)، الأعلام للزِّرِكْلِيّ (6/ 61).

(2) وممن أثبت أشعريته يحيى الطويان في تحقيقه لتفسير الزركشي، انظر: تفسير الإمام الزَّركشي من أول سورة الفاتحة إلى نهاية سورة المائدة جمعًا ودراسة، رسالة دكتوراه (ص: 21).

تعريف موجز بكتاب البرهان:

ألف الزركشي كتاب البرهان في علوم القرآن وجمع فيه قدرًا من العلوم؛ مما يعين المفسر على تفسيره فقال: «ولما كانت علوم القرآن لا تنحصر ومعانيه لا تستقصى، وجبت العناية بالقدر الممكن ومما فات المتقدمين وضع كتاب يشتمل على أنواع علومه، وكما وضع الناس ذلك بالنسبة إلى علم الحديث فاستخرت الله تعالى - وله الحمد - في وضع كتاب في ذلك، جامع لما تكلم الناس في فنونه وخاضوا في نكته وعيونه، وضمنته من المعاني الأنيقة والحكم الرشيقة ما يهز القلوب طربًا، ويبهر العقول عجبًا؛ ليكون مفتاحًا لأبوابه وعنوانًا على كتابه، معينًا للمفسر على حقائقه ومطلعًا على بعض أسراره ودقائقه، والله المخلص والمعين، وعليه أتوكل وبه أستعين، وسميته البرهان في علوم القرآن»[3]، فجمع الزركشي في كتابه عصارة أقوال المتقدمين، وصفوة آراء العلماء المحققين، حول القرآن الكريم، ورتبها في سبعة وأربعين نوعًا، كل نوع يدور حول موضوع خاص من علوم القرآن ومباحثه، قال عنها الزركشي: «واعلم أنه ما من نوع من هذه الأنواع إلا ولو أراد الإنسان استقصاءه لاستفرغ عمره، ثم لم يحكم أمره ولكن اقتصرنا من كل نوع على أصوله والرمز إلى بعض فصوله، فإن الصناعة طويلة والعمر قصير، ماذا عسى أن يبلغ لسان التقصير»[4]، وقد حاول في كل موضوع أن يذكر أهم ما يشتمل عليه من مسائل علمية، ويعنى بالتوثيق والنقل عن العلماء، وقد وظف ثقافته وسعة علمه في تحرير أنواع كتابه، فكانت مباحث الكتاب يمتزج فيه عدد من العلوم بحسب موضوع كل علم؛ لذلك نجد في الكتاب أقوال المفسرين والمحدثين، وآراء الفقهاء والأصوليين، وقضايا المتكلمين وأصحاب الجدل، ومسائل العربية وآراء أرباب الفصاحة والبيان، فجاء كتابه نموذجًا للبحث البيني الذي تمتزج فيه العلوم لتنبت مؤلفًا مبتكرًا وأصلًا يرجع إليه في بابه، مع غزارة مادته العلمية، وبعدها عن الحشو والاستطراد[5].

وقد حظي هذا الكتاب بالقبول والإقبال وأقبل عليه العلماء وطلاب العلم، حتى أدرجه السيوطي في كتابه الإتقان واستفاد منه كثيرًا، وممن أثنى على البرهان الحافظ ابن حجر(852هـ) فقال: «البرهان في علوم القرآن من أعجب الكتب وأبدعها، مجلدة، ذكر فيه نيفًا وأربعين علمًا من علوم القرآن وتخرج به جماعة»[6].

(3) البرهان في علوم القرآن (1/ 11-12).

(4) المرجع السابق.

(5) انظر: تعليق محقق البرهان في علوم القرآن، لمحمد أبو الفضل إبراهيم (1/ 13).

(6) إنباء الغمر بأبناء العمر (1/ 447).

التعريف بمعنى إعجاز القرآن:

الإعجاز لغة:

يعود لفظ الإعجاز في اللغة إلى العَجْزِ، فالعين والجيم والسين أصل صحيح واحدٌ. ومعنى العَجْزِ: الضَّعْفُ[7]، والإعجاز إفعال من العَجْز[8]، ويعني ما يلي:

- الضعف: عَجَزَ عَنْ الشَّيْءِ عَجْزًا ضَعُفَ عَنْهُ، وَعَجِزَ عَجَزًا مِنْ بَابِ تَعِبَ.

- نقيض الحزم: عَجَّز فلانٌ رَأْيَ فُلَانٍ إذا نَسَبَهُ إلى خِلَافِ الحَزْم كأَنه، نَسَبَهُ إلى العَجْز.

- التثبيط: فالتَّعْجِيزُ: التَّثْبِيط. يقال: ثَبَّطه عَلَى الأَمر فتَثَبَّط: وقَّفَه عَلَيْهِ فتوَقَّف.

- الفَوْتُ والسَّبق، يقال: أعجزَني فلانٌ، إذا عَجزتَ عَن طلبه وإدراكه، وعَجَّزَ الرجلُ وعاجَزَ: ذهب فلم يوصل إليه.

- زوال القدرة عن الإتيان بالشيء، من عمل، أَو رأْى، أَو تدبير[9].

- مؤخرة الشيء: عَجْزُ الشَّيْءِ وعِجْزُه وعُجْزُه وعَجُزُه وعَجِزُه: آخِرُهُ. وقال أكثم بن صيفي لابنه: لَا تُدَبِّروا أعجازَ أمورٍ قد وَلَّت صُدورُها، جمع عجز وهو مؤخر الشيء، يريد بها أواخر الأمور وصدورها[10].

- وقال الراغب (ت: 502هـ): والعَجْزُ أصلُهُ التَّأَخُّرُ عن الشيء، وحصوله عند عَجُزِ الأمرِ، أي: مؤخّره، كما ذكر في الدّبر، وصار في التّعارف اسمًا للقصور عن فعل الشيء، وهو ضدّ القدرة[11].

وهكذا نخلص إلى إن الإعجاز في اللغة التأخر، وزوال القدرة عن أداء الشيء أو إدراكه.

الإعجاز في الاصطلاح:

لا يخرج معنى الإعجاز في الاصطلاح عن معناه في اللغة، وهذا ما يلحظ عند النظر فيمن عرّفوا الإعجاز في مصنفاتهم، قال المناوي (1031هـ) في تعريف الإعجاز: وصار في التعارف اسمًا للقصور عن فعل الشيء، وهو ضد القدرة[12].

وقيده الجُرْجَاني (ت: 816هـ)، بالإعجاز في الكلام فقال: الإعجاز في الكلام بأن يؤدّى المعنى بطريق هو أبلغ من جميع ما عداه من الطرق[13].

وعرفه المرتضى الزبيدي (ت: 1205هـ) بقوله:

(7) انظر: مقاييس اللغة، لابن فارس (1/ 234-235)، لسان العرب، لابن منظور، مادة: (عجز). ومادة (ثبط)، المصباح المنير، للفيومي (2/ 393).

(8) المفردات في غريب القرآن (ص: 547).

(9) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (1/ 65).

(10) تهذيب اللغة، لابن فارس (1/ 219)، تاج العروس (15/ 199).

(11) المفردات في غريب القرآن (ص: 547).

(12) التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي (ص: 236).

(13) التعريفات، للجُرْجَاني (ص: 31).

وحقيقة الإعجاز: إثبات العجز، فاستعير لإظهاره، ثم أسند مجازًا إلى ما هو سبب العجز ثم جعل اسمًا له، فقيل: معجزة والتاء للنقل من الوصفية إلى الاسمية كما في الحقيقة، أو المبالغة كما في العلامة[14].

وقد تأثر تعريف الإعجاز بالمنطلقات العقدية عند عدد من الفرق الإسلامية فقيده الباقلاني (ت:403هـ) بقدرة الله تعالى فقال: والمعجز لا يكون عندنا معجزا حتى يكون مما ينفرد الله عزوجل بالقدرة عليه ولا يصح دخوله تحت قدر الخلق من الملائكة والبشر والجن. وقال: المراد بهذا الإطلاق أنه مما لا يدخل تحت قدر العباد لامتناع كونه مقدورا لهم واستحالة وقوعه منهم لا لعجزهم عنه ومنعهم منه[15]. وعرفه الجُويني (ت: 419هـ) بأنه الإنباء عن امتناع المعارضة من غير تعرض لوجود العجز الذي هو ضد القدرة[16].

وهذا القول مبني على أنّ المعجزة لا تكون إلاَّ مقدورة للرب، لا للعباد، وهو قولُ الأشاعرة وكثيرٍ من أهل الكلام من القدرية، والمثبتة للقدر، وغيرهم، وذلك بناء على مقدمات عندهم[17].

(14) إتحاف السادة المتقين (2/ 204).

(15) كتاب البيان (ص: 8-9).

(16) الإرشاد (ص: 246).

(17) انظر: النبوات، لابن تيمية (1/ 217). وقال رحمه الله: «المعجزات عند الأشاعرة هي ما تعجز قدرات العباد عنها، إنّه إذا لم يقدر على الفعل، فلا بُدّ أن يكون عاجزًا، أو قادرًا على ضدّه. = هذا احتجاج من يقول القدرة مع الفعل، والقدرة عنده لا تصلح للضدّين؛ كالأشعرية، فيقول: لا يخلو من القدرة، أو العجز، فهذه مقدمة. والمقدمة الثانية: ونحن لا نحسّ من أنفسنا عجزًا عن إبراء الأكمه، والأبرص، وإحياء الموتى، ونحو هذه الأمور، لكنّا غير قادرين عليها، ولا يجوز أن نقدر عليها. وهؤلاء يقولون: لا يكون الشيء عاجزًا إلاَّ عمّا يصحّ أن يكون قادرًا عليه، بخلاف ما لا يصحّ أن يكون قادرًا عليه، فلا يصحّ أن يكون عاجزًا عنه. ولهذا قالوا: لا ينبغي أن تُسمّى هذه معجزات؛ لأنّ ذلك يقتضي أنّ الله أعجز العباد عنها، وإنما يعجز العباد عما يصحّ قدرتهم عليه. هذا كلام القاضي أبي بكر - الباقلاني - ومن وافقه».

(18) انظر: جامع البيان، للطبري (10/ 224).

الإعجاز في القرآن:

ورد لفظ الإعجاز في القرآن ستًّا وعشرين مرة في ست صيغ وهي: (عَجَزَ، نُعجِز، معاجِز، مُعجِز، أعجاز، وعَجوز)، وكلها وردت بمعانٍ لا تخرج عن المعنى اللغوي وذلك كما يلي:

1. الضعف وانتفاء القدرة عن الإتيان بالشيء: من عمل أَو رأْيٍ أَو تدبير. ودل عليها لفظ: عجز وعجوز، قال تعالى حكاية عن ابن آدم: ﴿ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١]، أي: ضعف رأيه وزال عن معرفة كيف يواري سوْءَة أخيه[18]، وقال تعالى: ﴿ قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ ﴾ [هود: ٧٢]، ﴿ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ

عَقِيمٌ﴾ [الذاريات: ٢٩]، وَالعَجُوزُ سمّيت بذلك لِعَجْزِهَا في كثير من الأمور[19].

2. الفوت والسبق: قال تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [النور: ٥٧]، ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾ [الأنفال: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [العنكبوت:4]، ومعنى يسبقونا: يعجزونا. أي: يعجزونا فيفوتونا بأنفسهم، فلا نقدر عليهم فننتقم منهم لشركهم بالله[20]؛ ولذلك أيقن الجن أن عقاب الله لا يفلت منه أحد استحقه بعد أن سمعوا القرآن وآمنوا به قال تعالى: ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴾ [الجن: ١٢]، وقال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [فاطر: ٤٤]، فما أنتم بمفلتين من عذاب الله؛ لأن الله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء[21].

3. التثبيط: ودل عليه لفظ معاجز، وتعني الإبطال قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الحج: ٥١]، قال ابن زيد في قول الله: ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ ﴾، قال: جاهدين ليهبطوها أو يبطلوها، قال: وهم المشركون، وقرأ: ﴿ لَا تَسْمَعُواْ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فُصِّلَت: 26]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْاْ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الحج: ٥١]، ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ [سبأ: ٥]، قُرِئَتْ مُعَجِّزين، وتأْويلها أَنهم يُعَجِّزُون مَنِ اتَّبَعَ النَّبِيَّ، ﷺ، ويُثَبِّطُونهم عَنْهُ وَعَنِ الإِيمان بِالْآيَاتِ[22].

4. مؤخرة الشيء: قال تعالى: ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ [القمر: ٢٠]، ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٧]، قال السمين (ت: 756هـ): «والأَعْجاز: جمعُ عَجُزٍ وهو مُؤَخَّرُ الشيءِ ومنه (العَجْزُ)؛ لأنه يُؤَدِّي إلى تأَخُّرِ الأمورِ. والـمُنْقَعِرُ: الـمُنْقَلِعُ مِنْ أصله، قَعَرْتُ النخلةَ: قَلَعْتُها مِنْ أصلها فانقَعَرَتْ»[23].

فالإعجاز في القرآن يدل على معنيين:

أحدهما: الدلالة الحسية، وهي أصول النخل ومؤخرتها.

الثاني: الدلالة المعنوية وتتضمن:

– فوات قدرة الكافرين على الفرار من الله تعالى وعذابه.

– فوات قدرة الكافرين على إبطال نسبة كلام الله تعالى له.

(19) المفردات في غريب القرآن (ص: 548).

(20) جامع البيان (19/ 10).

(21) التحرير والتنوير، لابن عاشور (22/ 339).

(22) لسان العرب، لابن منظور، مادة (عجز).

(23) الدر المصون (10/ 138).

– فوات قدرة الكافرين على تثبيط المؤمنين عن الإيمان بآيات الله.

– ضعف قدرة ابن آدم في رأيه أو عمله.

معنى إعجاز القرآن كمصطلح مركب:

ورد في معنى إعجاز القرآن كمصطلح مركب عدد من التعريفات أذكر منها ما يأتي:

– ارتقاؤه فِي البلاغة إِلَى أَن يخرج عَن طوق الْبشر، ويعجزهم عَن معارضته[24].

– إعجازُ القرآنِ خلقَ اللهِ عن الإتيان بما تحداهم به[25].

– عدم قدرة العرب على معارضة القرآن، وقصورُهم عن الإتيان بمثله مع توفر ملكتهم البيانية[26].

– إظهار صدق النبيّ ﷺ في دعوى الرسالة، بإظهار عجز العرب عن معارضته في معجزته الخالدة – وهي القرآن – وعجز الأجيال بعدهم عن ذلك[27].

التعليق على التعريف:

يلحظ على هذه التعريفات الآتي:

– عدم تحديد ماهية العجز، فما زالت معنًى غامضًا في هذه التعريفات.

– تقيد العجز بعدم القدرة على المعارضة في حال التحدي، وليس بيانًا لماهية العجز.

– تخصيص الإعجاز بالبلاغة والبيان –في بعض التعريفات–.

– عدم الإشارة إلى فوات قدرة المنكرين على إبطال نسبة القرآن لله تعالى.

وحتى نصل إلى تعريف إعجاز القرآن في حقيقته لابد أن يراعى في التعريف المحددات الآتية:

1. المعنى اللغوي لكلمة إعجاز.
2. معنى كلمة (عجز) في السياق القرآني.
3. معنى آيات التحدي ومقاصدها، وشبهة المنكرين للقرآن.
4. إثبات صفة الكلام لله تعالى، وفق معتقد أهل السنة.
5. العلم بخصائص كلام الله ﷻ.

وعلى ذلك فيمكن تعريف إعجاز القرآن من جهتين:

الجهة الأولى معنى الإعجاز من جهة المتكلِّم به سبحانه:

دلائل كلام الله على المتكلم سبحانه، وما في كلامه من صفات تليق بجلاله وعظمته ﷻ.

الجهة الثانية معنى الإعجاز من جهة المنكرين لكلام الله:

فوات قدرة الخلق عن معارضة كلام الله أو إثبات افتراءاتهم حول القرآن، وإبطال الإيمان به.

(24) الكليات، للكفوي (149).

(25) مناهل العرفان، للزرقاني (2/ 331).

(26) البلاغة القرآنية، لأحمد درويش، وعزة جدوع (ص: 19).

(27) الواضح في علوم القرآن، لمصطفى ديب البغا، ومحيى الدين ديب مستو (ص: 151).

العلاقة بين إعجاز القرآن وعلوم القرآن:

الإعجاز قضية ملازمة للقرآن الكريم لا تنفك عنه ولا يشاركه غيره فيها، ومن ضوابط إدخال علم من العلوم في علوم القرآن أن يكون ذلك العلم منبثقًا من القرآن الكريم، لا ينتسب إلى غيره[28]؛ ولذا اعتنى أصحاب المصنفات في علوم القرآن بإيراد مبحث الإعجاز ضمن مصنفاتهم في باب الحديث عن القرآن الكريم نفسه، وليس من باب مناقشة قضية التحدي بالقرآن الكريم وإثبات النبوة، ولا يشكل على ذلك الطرح العقدي لموضوع الإعجاز، إذ الطرح العقدي على شقين: أحدهما طرح أهل العقيدة من أهل الكلام ونحوهم ممن يتكلم عن الإعجاز؛ لتقرير معتقدهم في معنى المعجزة والفرق بين دلائل النبوة وأعمال السحر وكرامة الأولياء، والشق الآخر طرح أهل السنة الذي يُعنى بإبراز الخلل المنهجي لدى علماء الكلام في مبحث الإعجاز والمعجزة، ودلائل النبوة، وما يتعلق بها من مسائل عقدية.

أما الإعجاز في علوم القرآن فيرتبط بالتعريف بالقرآن ونزوله وبيان خصائصه الربانية وعلوه عن كلام الخلق، وما فيه من هدايات، وأساليب نظمه التي تعين على فهم معاني القرآن الكريم، وما يتفرع عن ذلك من مسائل تشكل علم إعجاز القرآن بصفته أحد علوم القرآن الكريم.

***

المبحث الأول

عرض إعجاز القرآن في البرهان في علوم القرآن[29]

يأتي ترتيب الإعجاز عند الزركشي في النوع الثامن والثلاثين في ترتيب مباحث علوم القرآن تحت عنوان (معرفة إعجازه) وقد ضمنه الآتي:

- بدأ الزركشي كلامه بذكر عناية الأئمة به، وإفرادهم له بالتصنيف، فذكر منهم أبي بكر بن الباقلاني (ت: 403هـ)، ونقل عن ابن العربي (ت: 543هـ) أنه قال: «ولم يصنف مثله»، والخطابي (ت: 388هـ)، والرماني (ت: 384هـ)، والبرهان لعزيزي (ت: 494هـ)، ثم قال: «وغيرهم».

- وصف الزركشي الإعجاز فقال: وهو «علم جليل، عظيم القدر»، وبين علَّة ذلك الوصف؛ لأن معجزة رسول الله ﷺ الباقية القرآنُ، وهذا يوجب الاهتمام بمعرفة إعجازه.

- استدل الزركشي على إعجاز القرآن بثلاث آيات، هي قوله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ

(28) انظر: مقالات في علوم القرآن وأصول التفسير، لمساعد الطيار (1/ 40).

(29) البرهان في علوم القرآن (2/ 90-117).

ٱلۡحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم: 1]، وقوله سبحانه: ﴿ وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ ﴾ [التوبة: 6]، وبقوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾[العنكبوت: 50-51].

- بعد أن ذكر أدلته في الإعجاز انتقل للحديث عن تحدي رسول الله ﷺ فقال: «ولما جاء به ﷺ إليهم وكانوا أفصح الفصحاء ومصاقع الخطباء، تحداهم على أن يأتوا بمثله، وأمهلهم طول السنين فلم يقدروا، يقال: تحدى فلان فلانًا إذا دعاه إلى أمر ليظهر عجزه فيه، ونازعه الغلبة في قتال أو كلام غيره، ومنه: أنا حُدَيّاك، أي أبرز لي وحدك».

- ثم أكد على قضية التحدي بقوله: «واعلم أن النبي ﷺ تحدى العرب قاطبة بالقرآن حين قالوا (افتراه) فأنزل الله ﷻ عليه: ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ ﴾ [هود: ١٣]، فلما عجزوا عن الإتيان بعشر سور تشاكل القرآن قال تعالى: ﴿ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ ﴾ [يونس: ٣٨]، ثم كرر هذا فقال: ﴿ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٣]، أي من كلام مثله، وقيل: من بشر مثله، ويحقق القول الأول الآيتان السابقتان، فلما عجزوا عن أن يأتوا بسورة تشبه القرآن على كثرة الخطباء فيهم والبلغاء قال: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴾ [الإسراء: ٨٨]، فقد ثبت أنه تحداهم به، وأنهم لم يأتوا بمثله لعجزهم عنه؛ لأنهم لو قدروا على ذلك لفعلوا، ولما عدلوا إلى العناد تارة والاستهزاء أخرى، فتارة قالوا: سحر، وتارة قالوا: شعر، وتارة قالوا: أساطير الأولين، كل ذلك من التحيّر والانقطاع».

- عرض الزركشي رأي أبي محمد مكي بن أبي طالب (ت: 437هـ) في اختصاره لنظم القرآن للجُرْجَاني[30]، فقال: «قال ابن أبي طالب مكي في اختصاره نظم القرآن للجُرْجَاني، قال المؤلف: أنزله بلسان عربي مبين بضروب من النظم مختلفة على عادات العرب، ولكن الأعصار تتغير وتطول فيتغير النظم عند المتأخرين لقصور أفهامهم، والنظر كله جارٍ على لغة العرب، ولا يجوز أن ينزله على نظم ليس من لسانهم؛

(30) هو الحسن بن يحيي بن نصر الجرجاني، تاريخ جرجان، أبو القاسم الجرجاني (1/ 187)، لم تشر المصادر إلى تاريخ وفاته، وكتاب مكي اسمه: (انتخاب كتاب نظم القرآن للجرجاني) ت: وهو مفقود كما أشار د. أحمد فرحات. انظر مكي ابن أبي طالب وتفسير القرآن (ص: 133)، وأقوال الحسن الجرجاني في التفسير من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة المؤمنون جمع ودراسة، رسالة ماجستير ت: إعداد الباحثة هدى التمامي (ص: 22، 26).

لأنه لا يكون حجة عليهم بدليل قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ﴾ [يونس: ٣٨]، وفي قوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ﴾ [يونس: ٣٩]، فأخبر أنهم لم يعلموه لجهلهم به وهو كلام عربي.

قال أبو محمد: لا يحتمل أن يكون جهلهم إلا من قبل أنهم أعرضوا عن قبوله، ولا يجوز أن يكون نزل بنظم لم يعرفوه؛ إذ لا يكون عليهم حجةً، وجهلُنا بالنظم لتأخرنا عن رتب القوم الذي نزل عليهم جائزٌ، ولا يمنع. فمن نزل عليهم كان يفهمه إذا تدبره لأنه بلغته، ونحن إنما نفهم بالتعليم. انتهى.

وهذا الذي قاله مشكل؛ فإن كبار الصحابة ﷺ حفظوا البقرة في مدة متطاولة؛ لأنهم كانوا يحفظون مع التفهم».

- لخص الزركشي الأقوال في إعجاز القرآن في قولين فقال: «وإعجاز القرآن ذكر من وجهين:

أحدهما: إعجاز متعلق بنفسه. والثاني: بصرف الناس عن معارضته».

- قرر الزركشي أن القرآن معجز، ونص على الاختلاف في إعجازه ونقل الأقوال في ذلك فقال: «واختلفوا في إعجازه، فقيل: إن التحدي وقع بالكلام القديم الذي هو صفة الذات، وإن العرب كلفت في ذلك مالا تُطيق، وفيه وقع عجزها، والجمهور على أنه إنما وقع بالدالِّ على القديم، وهو الألفاظ.

فإذا ثبت ذلك فاعلم أنه لا يصح التحدي بشيء مع جهل المخاطب بالجهة التي وقع بها التحدي، ولا يتجه قول القائل لمثله: إن صنعت خاتمًا كنت قادرًا على أن تصنع مثله؛ إلا بعد أن يمكِّنه من الجهة التي تدعي عجز المخاطب عنها، فنقول: الإعجاز في القرآن العظيم إما أن يعني بالنسبة إلى ذاته، أو إلى عوارضه من الحركات والتأليف، أو إلى مدلوله أو إلى المجموع، أو إلى أمر خارج عن ذلك؛ لا جائز أن يكون الإعجاز حصل من جهة ذوات الكلم المفردة فقط؛ لأن العرب قاطبة كانوا يأتون بها؛ ولا جائز أن يكون الإعجاز وقع بالنسبة إلى العوارض من الحركات والتألف فقط؛ لأنه يُحوج إلى ما تعاطاه مسيلمة من الحماقة: (إنا أعطيناك الجواهر، فصل لربك وهاجر، إن شانئك هو الكافر)، ولو كان الإعجاز راجعًا في الإعراب والتأليف المجرد لم يعجز صغيرهم عن تأليف ألفاظ معربة، فضلًا عن كبيرهم، ولا جائز أن يقع بالنسبة إلى المعاني فقط؛ لأنها ليست من صنيع البشر، وليس لهم قدرة على إظهارها من غير ما يدل عليها، ولا جائز أن ترجع إلى المجموع؛ لأنا قد بيّنا بطلانه بالنسبة إلى كل واحد، فيتعين أن يكون الإعجاز لأمر خارج غير ذلك».

- أفرد الزركشي فصلًا في بيان الأقوال المختلفة في وجوه الإعجاز:

وتحت هذا العنوان ذكر اثني عشر قولًا في أوجه

إعجاز القرآن واختار منها أن الإعجاز في نظمه فقال: «السادس: - وصححه ابن عطية (ت: 542هـ) وقال -: إنه الذي عليه الجمهور والحذاق - وهو الصحيح في نفسه - أن التحدي إنما وقع بنظمه، وصحة معانيه، وتوالي فصاحة ألفاظه، ووجه إعجازه أن الله أحاط بكل شيء علمًا، وأحاط بالكلام كله، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن علم بإحاطته أيَّ لفظة تصلح أن تلي الأولى ويتبين المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره والبشر معهم الجهل والنسيان، والذهول ومعلوم بالضرورة أن أحدًا من البشر لا يحيط بذلك وبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة، وبهذا النطق يبطل قول من قال: إن العرب كان في قدرتها الإتيان بمثله فلما جاءهم النبي ﷺ صُرِفوا عن ذلك وعجزوا عنه».

- يرى الزركشي أن الحجة قامت على العالم بالعرب؛ لأنهم أرباب الفصاحة فقال: «وقامت الحجة على العالم بالعرب؛ إذ كانوا أرباب الفصاحة ومظنة المعارضة، كما قامت الحجة في معجزة عيسى بالأطباء، وفي موسى بالسحرة، فإن الله تعالى إنما جعل معجزات الأنبياء بالوجه الشهير أبرع ما تكون في زمن النبي الذي أراد إظهاره، فكان السحر في مدة موسى قد انتهى إلى غايته، وكذا الطب في زمان عيسى، والفصاحة في مدة محمد ﷺ».

- عقد الزركشي فصلًا في القدر المعجز من القرآن، ونقل فيه كلام الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن[31] مكتفيًا بما قرره فقال: «قال القاضي أبو بكر: ذهب عامة أصحابنا - وهو قول الأشعري في كتبه - إلى أن أقل ما يعجز عنه من القرآن السورة، قصيرة كانت أو طويلة أو ما كان بقدرها.

قال: فإذا كانت الآية بقدر حروف سورة وإن كانت كسورة الكوثر فذلك معجز، قال: ولم يقم دليل على عجزهم عن المعارضة في أقل من هذا القدر».

وفي هذا الفصل حكى الباقلاني أن المعتزلة ذهبت إلى أن كل سورة برأسها معجزة، وأنه قد حكي عنهم نحو قول الأشاعرة إلا أن منهم من لم يشترط كون الآية بقدر السورة، بل شرط الآيات الكبيرة، وقال: «وقد علمنا أنه تحداهم تحديا إلى السور كلها ولم يخص، ولم يأتوا بشيء منها، فعلم أن جميع ذلك معجز».

كما نقل توجيه الباقلاني لمعنى قوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ [الطور: 34]، أنه لا يخالف أن أقل ما يعجز من القرآن السورة، قصيرة كانت أو طويلة، فقال: «فلا يخالف ما ذهب إليه في بيان القدر المعجز لأن الحديث التام لا تتحصل حكايته في أقل من كلمات سورة قصيرة قال: «وهو يؤكد مذهب أصحابنا، وإن كان يتأول قوله:

(31) إعجاز القرآن، للباقلاني (ص: 254).

﴿ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ ﴾ على القبيل دون التفصيل»، وكذلك يحمل قوله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ ﴾ ...الآية [الإسراء: 88] على القبيل، لأنه لم يجعل الحجة عليهم عجزهم عن الإتيان بجميعه من أوله إلى آخره».

وقال الباقلاني: «فإن قيل: هل تعرفون إعجاز السور القصار بما تعرفون إعجاز السور الطوال؟ وهل يعرف إعجاز كل قدر من القرآن بلغ الحدّ الذي قدرتموه على ما تعرفون به إعجاز سورة البقرة ونحوها؟:

قلنا: إن أبا الحسن الأشعري (ت: 325هـ) قد أجاب عن ذلك بأن كل سورة قد علم كونها معجزة بعجز العرب عنها، وسمعت بعض الكبراء من أهل هذا الشأن يقول: إنه يصح أن يكون علم ذلك توقيفًا، والطريقة الأولى أسد، وتظهر فائدتها في أن الأُولى تبين أن ما علم به كون جميع القرآن معجزًا موجود في كل سورة قصرت أو طالت، فيجب أن يكون الحكم في الكل واحدًا، والأخرى تتضمن تقدير معرفة إعجاز القرآن بالطريق التي سلكناها» (32).

- عقد الزركشي فصلًا بين فيه أولَ ما تحدى الله تعالى فقال: «اعلم أنه سبحانه تحداهم أولًا في الإتيان بمثله فقال: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨]، ثم تحداهم بعشر سور منه وقطع عذرهم بقوله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ ﴾ [هود: ١٣]، وإنما قال: ﴿ مُفْتَرَيَٰتٍ ﴾ من أجل أنهم قالوا: لا علم لنا بما فيه من الأخبار الخالية والقصص البالغة، فقيل لهم: مفترياتٍ؛ إزاحة لعللهم وقطعًا لأعذارهم، فعجزوا، فردهم من العشر إلى سورة واحدة، من مثله مبالغة في التعجيز لهم فقال: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣]، أي يشهدون لكم أنها في نظمه وبلاغته وجزالته فعجزوا، فقال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ ﴾ [البقرة: 24]؛ مبالغة في التعجيز وإفحامًا لهم، ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ﴾، وهذه مبالغة في الوعيد، مع أن اللغة لغتهم والكلام كلامهم، وناهيك بذلك أن الوليد بن المغيرة - لعنه الله - كان سيد قريش، وأحد فصحائهم لما سمعه أخرس لسانه وبلد جنانه، وأطفئ بيانه وقطعت حجته، وقصم ظهره وظهر عجزه وذهل عقله».

- طرح الزركشي مسألة في أن التحدي إنما وقع للإنس دون الجن، واختار أن «التحدي وقع للإنس دون الجن؛ لأن الجن ليسوا من أهل اللسان العربي الذي جاء القرآن على أساليبه؛ وإنما ذكروا في قوله: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ ﴾ [الإسراء: ٨٨]؛ تعظيمًا لإعجازه؛

(32) إعجاز القرآن، للباقلاني (ص: 255).

لأن الهيئة الاجتماعية لها من القوة ما ليس للأفراد، فإذا فرض اجتماع جميع الإنس والجن، وظاهر بعضهم بعضًا، وعجزوا عن المعارضة كان الفريق الواحد أعجز».

– عقد الزركشي فصلًا في أنه هل يعلم إعجاز القرآن ضرورة، ونقل ما فيه عن الباقلاني فصدره بقوله: «قال القاضي: ذهب أبو الحسن الأشعري إلى أن ظهور ذلك عن النبي ﷺ، يعلم ضرورة، وكونه معجزًا يعلم باستدلال، وهذا المذهب يحكى عن المخالفين، والذي نقوله في هذا: أن الأعجمي لا يمكنه أن يعلم إعجازه إلا استدلالًا، وكذلك من لم يكن بليغًا، فأما البليغ الذي قد أحاط بمذاهب العربية وغرائب الصنعة – فإنه يعلم من نفسه ضرورة عجزه عن الإتيان بمثله» (33).

– ذكر الزركشي مسألة في الحكمة في تنزيه النبي عليه السلام عن الشعر، ومسألة في تنزيه الله القرآن أن يكون شعرًا، وفصل في اختلاف المقامات ووضع كل شيء في موضع يلائمه، وفصل في اشتمال القرآن على أعلى أنواع الإعجاز، وبين المراد بهذا الفصل فقال: «وهو أن يقع التركيب بحيث لا يمتنع أن يوجد ما هو أشد تناسبًا ولا اعتدالًا في إفادة ذلك المعنى». كما عرض الخلاف في هل تتفاوت فيه مراتب الفصاحة؟ على قولين أحدهما: المنع وأن كل كلمة موصوفة بالذروة العليا، وهذا اختيار الباقلاني والآخر: أنها تتفاوت، وهذا رأي القُشَيريّ الذي قال: «فإنا لا ندعي أن كل ما في القرآن على أرفع الدرجات في الفصاحة».

ويظهر أن الزركشي رجح قول الباقلاني؛ لأنه ختم فصل بقوله: «وقد سبق اختيار القاضي أنه ليس على أساليبهم ألبتة، فيبقى السؤال بحاله».

• ختم الزركشي مبحث الإعجاز بهذا التنبيه: «في أن معرفة مقامات الكلام لا تدرك إلا بالذوق».

***

المبحث الثاني

تحليل إعجاز القرآن في البرهان في علوم القرآن

بعد استعراض ما قرره الزركشي في مبحث معرفة إعجاز القرآن يمكن تحليل أقواله كما يأتي:

1) المصنفات في الإعجاز التي ذكرها الزركشي:

قدم الزركشي في مقدمة مبحث الإعجاز بذكر أشهر من صنف فيه، وقد يذكر المؤلف دون اسم كتابه لشهرته، وقد يذكر المصنِّف مع جزء من اسم الكتاب، فأما المؤلفون الذين ذكرهم دون مؤلفاتهم فهم:

– محمد بن الطيب أبو بكر الباقلاني، وأشهر مؤلفاته في الإعجاز كتاب: إعجاز القرآن، وقد نقل عن ابن العربي قوله: إن تصنيف الباقلاني لم يصنف مثله.

– أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم، المعروف بالخطابي، ويعرف كتابه باسم بيان إعجاز القرآن.

(33) إعجاز القرآن، للباقلاني (ص: 256).

- علي بن عيسى بن علي أبو الحسن الرماني المعتزلي وكتابه النكت في إعجاز القرآن.

أما المؤلفون الذين ذكرهم مع مصنفاتهم فهو عزيزي[34]، وذكر له الزركشي كتاب البرهان دون التفصيل في ذكر بقية اسم الكتاب. ومن خلال البحث في ترجمة عزيري تبين أن له كتابين أحدهما (بَيَان الْبُرْهَان فِي علم البلاغة) والآخر، (البرهان في مشكلات القرآن).

ويمكن القول: إن أقوال الباقلاني وآراءه في الإعجاز من أهم مصادر الزركشي، وقد ينقل عنه أقواله واختياراته مصرحًا باسمه فيقول: (قال القاضي أبو بكر)، أو (واختار القاضي أبو بكر ابن الطيب في كتاب (الإعجاز))، أو يقرر آراءه دون الإحالة إليه، نقل عن الخطابي رأيه في الإعجاز بقوله: (قال الخطابي في كتابه)، وأما الرماني فلم يصرح بالنقل عنه إلا أن القول الثالث الذي أورده الزركشي - في فصل بيان الأقوال المختلفة في وجوه الإعجاز - قد ذكره الرماني في كتابه النكت[35]، كما لم يصرح بالنقل عن عزيري، ولم أقف على شيء من كتبه لمعرفة ما نقل الزركشي منها.

ويلاحظ أن هذه المصنفات تناولت البحث في أوجه الإعجاز التي وقع العجز بسببها، دون أن تعنى بدراسة المصطلح من حيث دلالة ألفاظ الإعجاز وآياته في القرآن الكريم وهو ما تم إيراده في بداية الدراسة. إذ الزركشي لم يضف على تلك المصنفات تعريف مصطلح إعجاز القرآن وتحرير ألفاظه بما يعين على تحديد مباحث هذا العلم ومسائله التي تعين على بيانه ومعرفة حدوده.

2) مكانة الإعجاز عند الزركشي:

وصف الزركشي الإعجاز بأنه: (علم جليل، عظيم القدر)، وعلل سبب ذلك قائلًا: (لأن نبوة النبي ﷺ معجزتها الباقية القرآن)؛ ولذا فإنه يرى أن ذلك: (يوجب الاهتمام بمعرفة الإعجاز).

وما قرره الزركشي هنا مما نقله عن الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن في قوله: «فصل: في أن نبوة النبي ﷺ معجزتها القرآن الذي يوجب الاهتمام التام بمعرفة إعجاز القرآن، أن نبوَّة نبينا عليه السلام بنيت على هذه المعجزة، وإن كان قد أُيِّد بعد ذلك بمعجزات كثيرة، إلا أن تلك المعجزات قامت في أوقات خاصة، وأحوال خاصة، وعلى أشخاص خاصة»[36].

والربط بين الاهتمام بالإعجاز كعلم جليل وبين

(34) هو القَاضِي عزيزي بن عبد الملك بن مَنْصُور أَبُو المَعَالي الجيلي القَاضِي الملقب بشيذلة، ورد بَغْدَاد وسكنها وولي قَضَاء بَاب الأزج، وتُوفِّي سنة أَربع وتِسْعين وأَرْبَعمِائَة انظر: الوافي بالوفيات، للصفدي (20/ 72)، الأعلام، للزِّرِكْليّ (4/ 232).

(35) انظر: النكت في إعجاز القرآن (ص: 110).

(36) إعجاز القرآن (ص: 8).

نبوة الأنبياء قضية عقدية تبحث في باب دلائل النبوة، وغالب الأشاعرة يحصرون دلائل النبوة في المعجزة، وذهب بعضهم إلى أن الدلالة على النبوة ليست محصورة في دلالة المعجزة، لكنهم جعلوها مكملة لدلالة المعجزة[37]. قال الباقلاني: «يجب أن يعلم أن صدق مدعي النبوة لم يثبت بمجرد دعواه، وإنما يثبت بالمعجزات» [38]. وقال: «فبان بهذا وبنظائره ما قلناه، من أن بناء نبوته ﷺ على دلالة القرآن ومعجزته»[39]. وقال الجويني (ت: 419هـ): «فإن قيل: هل في المقدور نصب دليل على صدق النبي غير المعجزة؟ قلنا: ذلك غير ممكن، فإن ما يقدر دليلًا على الصدق لا يخلو: إما أن يكون معتادًا، وإما أن يكون خارقًا للعادة، فإن كان معتادًا، يستوي فيه البر والفاجر، فيستحيل كونه دليلًا، وإن كان خارقًا للعادة، يستحيل كونه دليلًا دون أن يتعلق به دعوى النبي، إذ كل خارق للعادة يجوز تقدير وجوده ابتداء من فعل الله تعالى: فإذا لم يكن بد من تعلقه بالدعوى، فهو المعجزة بعينها»[40].

وهذا الرأي لا يتفق مع رأي السلف في معرفة دلائل النبوة، قال ابن أبي العز (ت: 792هـ) في الرد على هذا القول: «والطريقة المشهورة عند أهل الكلام والنظر، تقرير نبوة الأنبياء بالمعجزات، لكنْ كثير منهم لا يعرِف نبوة الأنبياء إلا بالمعجزات، وقرروا ذلك بطرق مضطربة، والتزم كثير منهم إنكار خرق العادات لغير الأنبياء، حتى أنكروا كرامات الأولياء والسحر، ونحو ذلك.

ولا ريب أن المعجزات دليل صحيح، لكن الدليل غير محصور في المعجزات، فإن النبوة إنما يدعيها أصدق الصادقين أو أكذب الكاذبين، ولا يلتبس هذا بهذا إلا على أجهل الجاهلين، بل قرائن أحوالهما تعرب عنهما، وتعرف بهما، والتمييز بين الصادق والكاذب له طرق كثيرة فيما دون دعوى النبوة، فكيف بدعوى النبوة؟»[41].

وهكذا نلحظ أن منطلق أهمية علم الإعجاز عند الزركشي منطلق عقدي؛ ولذا فإن علماء العقيدة والباحثين فيها اعتنوا بمناقشة حصر دلائل النبوَّة في الإعجاز، وأبرزوا جوانب الخلل المنهجي في ذلك الارتباط[42]، وهي مناقشات علمية مهمة يعنينا منها نتائجها التي نستند إليها عند الحديث عن أهمية الإعجاز في الدراسات القرآنية، إذ تأتي أهمية الإعجاز في الدراسات القرآنية بما يشتمل عليه الإعجاز من بيان

(37) دلالة المعجزة، لعبد الله القرني (ص: 11).

(38) الإنصاف (ص: 54).

(39) إعجاز القرآن (ص: 14).

(40) الإرشاد (ص: 265).

(41) شرح الطحاوية (1/ 140).

(42) انظر على سبيل المثال: النبوات، لابن تيمية.

لخصائص القرآن الكريم، وجمال نظمه، وتنوع معانيه، وفنون خطابه، أما ما يتعلق بدلائل النبوة وعلاقتها بالإعجاز فهي مما يُبحث في علم العقيدة.

فالقرآن الكريم اختص بخصائص واتصف بصفات وردت في القرآن الكريم فهو وحي وكلام ومنزل ومهيمن ومجيد ونور وصراط وهدى وبيان وغيرها من الخصائص والصفات التي يستلزم إيرادها في بيان علم إعجاز القرآن إذ إن خصائص القرآن وصفاته « مبادئ عامة ذات صفة معرفية تجعل من القرآن مرجعية عالمية مستوعبة للأنساق الثقافية والحضارية كافة»[43] ولذا فإن من أهم من المقدمات المهمة في بيان علم إعجاز القرآن أن يُعلم خصائص القرآن المعجز وما فيها من إعجاز وكل ذلك يسهم في تجلية هذا العلم المهم من علوم القرآن.

3) أدلة إعجاز القرآن عند الزركشي:

استدل الزركشي على أن القرآن معجز بثلاثة أدلة:

الدليل الأول: قوله تعالى: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم: 1]، وهنا لم يذكر الزركشي وجه الإعجاز في الآية الكريمة مكتفيًا بما سيذكره في الآية التي تليها، إلا أن الباقلاني ذكرها مبينًا وجه الإعجاز فقال: «فأخبر أنه أنزله ليقع الاهتداء به، ولا يكون كذلك إلا وهو حجة، ولا يكون حجة إن لم يكن معجزة»[44].

الدليل الثاني: قوله سبحانه: ﴿ وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ ﴾ [التوبة: 6]، قال الزركشي: «فلولا أن سماعه إياه حجة عليه لم يقف أمره على سماعه، ولا تكون حجة إلا وهي معجزة»[45]، فالزركشي جعل الاحتجاج دليلًا على الإعجاز؛ لأن من شروط المعجزة عند الأشاعرة التحدي والاحتجاج، قال الباقلاني: «إن المعجز ليس بمعجز لجنسه ونفسه ولا لحدوثها، وإنما يصير معجزًا للوجوه التي ذكرناها، ومنها التحدي والاحتجاج»[46].

أما استدلال الزركشي بالآية على الإعجاز فلا تظهر دلالتها للوجوه الآتية:

أ- أن الحجة هي الدلالة المبيِّنة للمحجة، أي المقصد المستقيم الذي يقتضي صحة أحد النقيضين[47]، قال ابن عاشور (ت: 1393هـ): «والحجة في كلام

(43) خصائص القرآن في القرآن، محمد المتنار، مجلة ترتيل، ع2، (ص104).

(44) إعجاز القرآن (ص: 9).

(45) وهو قول الباقلاني (ت: 403هـ)، نقله عنه الزركشي دون التصريح. انظر: إعجاز القرآن (ص: 9).

(46) البيان (ص: 48).

(47) المفردات، للراغب (ص: 107).

العرب ما يقصد به إثبات المخالف، بحيث لا يجد منه تفصيًا، ولذلك يقال للذي غلب مخالفه بحجته: قد حجه، وأما الاحتجاج فهو إتيان المحتج بما يظنه حجة ولو مغالطة، يقال: احتج، ويقال: حاج إذا أتى بما يظنه حجة، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ ﴾ [البقرة: 258]، فالحجة لا تطلق حقيقة إلا على البرهان والدليل الناهض المبكت للمخالف»[48]؛ ولذا عرفها ابن تيمية (ت: 728هـ) بأنها اسم لكل ما يُحتج به من حق وباطل[49]، ومعنى قيام الحجة قطع العذر على الكافر إذا أراد الله عقابه فيقول: ﴿ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾ [طه: 134][50]، وقيام الحجة لا يلزم منه إعجازهم عن المماثلة أو مغالبتهم، بل يلزم منه قيام الأدلة على أن الله تعالى أرسل إليهم الرسول بالبشارة والنذارة، وبذلك تكون الشهادة يوم القيامة: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: 143].

ب- حجية القرآن قائمة بما فيه من العلم والهدايات والدلائل على صدق ما يأمر به وينهى عنه؛ ولذا فإن سماعه دليل وشاهد على العباد وحجة عليهم يسألون عنها، قال تعالى: ﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ ﴾ [الأنعام: 19]، قال قتادة: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: (يا أيها الناس، بلِّغوا ولو آيةً من كتاب الله، فإنه من بَلَغه آيةٌ من كتاب الله، فقد بلغه أمر الله، أخذه أو تركه)[51]، والله تعالى يحتج على الثقلين ببلوغهم آياته، قال تعالى: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ﴾ [الأنعام: 130]، أي: «يخبرونكم بما أوحي إليهم من تنبيهي إياكم على مواضع حججي، وتعريفي لكم أدلّتي على توحيدي، وتصديق أنبيائي، والعمل بأمري، والانتهاء إلى حدودي» [52].

وفي تقرير حافظ الحكمي (ت: 1377هـ) سماع الكافرين قال: «فإن الكفار كانوا يسمعون كلام النبي ﷺ، ويسمعون منه كلام الله تعالى وهو يتلوه عليهم، ولكن ليس ذلك بسماع استجابة؛ ولهذا أثبت تعالى هذا السماع الظاهر لهم في قوله تعالى: ﴿ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ ﴾ [الجاثية: 8]، ولو كان الكفار لم يسمعوا مطلقًا لا سماع استجابة ولا مطلقًا لم يكن القرآن حجة عليه» [53]، فأثبت رحمه الله أن مجرد سماع الكافر حجة عليه، وإن لم يقرَّ بعجزه عن المعارضة.

ج- أن مهمة النبي ﷺ تبليغ كلام الله وتلاوته؛

(48) التحرير والتنوير (2/ 46).

(49) اقتضاء الصراط المستقيم (1/ 100).

(50) جامع البيان، للطبري (9/ 408).

(51) المرجع السابق (11/ 209).

(52) المرجع السابق (12/ 120).

(53) معارج القبول (2/ 716).

لتقوم الحجة على الناس؛ ولذا أمر الله تعالى نبيه أنه يُسمِع المستجير آيات الله قال ابن تيمية: «أمر الله بإجارته حتى تقوم حجة الله عليه، ثم يبلغه مأمنه»(54)، ولقد وردت آيات في التأكيد على هذه المهمة العظيمة فقال تعالى: ﴿ رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ [الرعد: 30]، وقال ﷺ: (والقرآن حجة لك أو عليك)(55)، فقيام الحجةِ بالقرآن مقصد شرعي يحدث بمجرد سماع القرآن الكريم وفهم معناه، وهو أمر لا يلزم منه القول بالإعجاز، فليس الإعجاز من مقاصد سماع القرآن الكريم، ولا يترتب عليه تكليف ولا حساب؛ ولذا ذم الله تعالى الكفار عندما أعرضوا عن القرآن بعد سماعه لأنهم علموا ما فيه وأدركوا مراد الله تعالى من كلامه فقال تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الجاثية: 6-8].

قال ابن العربي: «يريد بقوله: ﴿ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: 6] مجرد الإصغاء، فيحصل العلم له بظاهر القول؛ وإنما أراد به فهم المقصود من دلالته على النبوة، وفهم المقصود به من التكليف، ولم يكن يخفى على العرب وجه الإعجاز فيه، وطريق الدلالة على النبوة، لكونه خارجًا عن أساليب فصاحة العرب في النظم والنثر، والخطب والأراجيز، والسجع والأمثال، وأنواع فصل الخطاب؛ فإن خلق الله له العلم بذلك، والقبول له صار من جملة المسلمين، فإن صد بالطبع، ومنع بالختم، وحق عليه بالكفر القول رد إلى مأمنه»(56).

د- أن لفظ (مُعْجِز) ورد في سياق هذه الآية مرتين قال تعالى: ﴿ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ ... إلى قوله: ﴿ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۖ ﴾ [التوبة: ٢ – ٣]، والمُعْجِزُ كما قال ابن عاشور: «اسم فاعل، من أعجز فلانًا إذا جعله عاجزًا عن عملٍ ما؛ فلذلك كان بمعنى الغالب والفائت، الخارج عن قدرة أحد» (57)، والله تعالى نفى عن الكافرين إعجازهم لله، أي يستحيل أن يفوت مخلوق من قدرة الله وسطوته وقهره. ولم يصف القرآن بأنه معجزة عند سماع الكافر له.

هـ- أن الآية الكريمة مدنية نزلت بعد فتح مكة في وقت قوة المسلمين وعزتهم، وضعف المشركين وذلهم؛ ولذا فإن الكافر لم يكن في حال منازعة وخصومة وتكذيب بالقرآن، وتعجيز لرسول الله ﷺ، بل كان في

(54) الجواب الصحيح (1/ 220).

(55) صحيح مسلم، كـ: الطهارة (ح223).

(56) أحكام القرآن (2/ 459).

(57) التحرير والتنوير (10/ 107).

حال خوف وطلب للإجارة والحماية؛ ولذا فإن إسماعه للقرآن كان بغرض تعليمه الدين والدعوة للتوحيد، وليس للتحدي والتعجيز، قال الطبري (ت: 310هـ): «يقول تعالى ذكره لنبيه: وإن استأمنك يا محمد من المشركين الذين أمرتك بقتالهم وقتلهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم أحدٌ؛ ليسمع كلام الله منك وهو القرآن الذي أنزله الله عليه، (فأَجِرْه)، يقول: فأمّنه حتى يسمع كلام الله وتتلوه عليه، (ثم أبلغه مأمنه)، يقول: ثم رُدَّه بعد سماعه كلام الله إن هو أبَى أن يسلم، ولم يتعظ لـمَّا تلوته عليه من كلام الله فيؤمّن، (إلى مأمنه)، يقول: إلى حيث يأمن منك وممن في طاعتك، حتى يلحق بداره وقومه من المشركين، (ذلك بأنهم قوم لا يعلمون)، يقول: تفعل ذلك بهم، من إعطائك إياهم الأمان ليسمعوا القرآن، وردِّك إياهم إذا أبوا الإسلام إلى مأمنهم، من أجل أنهم قوم جهلة لا يفقهون عن الله حجة» [58]، فتنزيل معنى المعجزة على قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: 6] لا يسعفه دلالة الآية كما تقدم.

الدليل الثالث: قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [العنكبوت: 50-51]، قال الزركشي: «فأخبر أن الكتاب آية من آياته، وأنه كاف في الدلالة، قائم مقام معجزات غيره وآيات سواه من الأنبياء»؛ فالأشاعرة حصروا دلالة النبوة في المعجزة، وجعلوا شروطها خرقَ العادة والتحدي والاحتجاج، وكلها مجتمعه في القرآن، فهو عندهم (كاف في الدلالة). ولكن أدلة ثبوت النبوة ليست فقط القرآن أو الآية التي جاء بها النبي على ما جاء تفصيله عند علماء العقيدة من أهل السنة[59].

والآية دلت على أن القرآن آية صدق على دعوى النبوة وأوجه دلالتها على ذلك كثيرة لا حصر لها منها إعجازه، قال السعدي: « ولما كان المقصود بيان الحق، ذكر تعالى طريقه، فقال: ﴿ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ ﴾ في علمهم بصدقك وصدق ما جئت به ﴿ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ ﴾ وهذا كلام مختصر جامع، فيه من الآيات البينات، والدلالات الباهرات، شيء كثير» ثم ذكر ﷺ أوجه دلائل صدق القرآن فذكر منها أمية رسول الله ﷺ وإعجازه وأخباره وهيمنته وهدايته إلى أن قال: «فجميع ذلك يكفي من أراد تصديق الحق، وعمل على طلب الحق»[60].

وعلى ما تقدم بيانه فإن أدلة إعجاز القرآن

(58) جامع البيان (14/ 138).

(59) انظر على سبيل المثال مناقشة شيخ الإسلام موضوع دلائل النبوة، وردوده على الأشاعرة وأهل الكلام؛ كتاب النبوات.

(60) تيسير الكريم المنان (633).

– والتي ينبغي أن تذكر بعد إيراد التعريف بمصطلح إعجاز القرآن – الأدلة الآتية:

1. عجز الخلائق على الإتيان بمثله أو بسورة من مثله، وإيراد آيات التحدي في ذلك مرتبة حسب ترتيب نزولها مع بيان أوجه أدلة تلك الآيات على إعجاز القرآن الكريم من بداية السور المكية وحتى خاتمتها في سورة مدنية «التي حُسم فيها الجدل العقيم بعد أن لزمتهم الحجة على صدق المعجزة»[61].

2. نظم القرآن الكريم الذي تحدى الله تعالى به المكذبين عند طلب المعارضة مع «الإشارة إلى ملحظين مهمين:

الملحظ الأول: أن الاقتصار على النظم كان من باب التنزل معهم، لأدنى ما يمكن مما بلغوا فيه الغاية من تصريف الكلام على الوجه الذي يريدونه، وأن ما بعده من أوجه الإعجاز التي تتعلق بالمعاني أعظم وأظهر، فطالبهم بالوجه الأيسر منه، فإذا عجزوا عنه فغيره من صنوف الإعجاز أولى.

الملحظ الثاني: أن التحدي القائم بالنظم، ملزم لهم بالإقرار بما في القرآن من أخبار ووعد ووعيد وغيرها من المعاني التي تدل على إعجاز القرآن وصدق ما جاء به الرسول ﷺ، وذلك أن عجزهم عن معارضة القرآن أن يأتوا بسورة مثله إقرار لهم أنه من عند الله، فإذا كان من عند الله وجب تصديقه والإيمان به»[62].

3. الحروف المقطعة التي اختص بها القرآن في مطلع بعض السور وما تدلت عليه من إعجاز بالنسبة لمن نزلت عليهم الآيات فلم ينكروها قال قطرب وغيره: «هي إشارة إلى حروف المعجم، كأنه يقول للعرب: إنما تحديتكم بنظم من هذه الحروف التي عرفتم، فقوله الم بمنزلة قولك أ، ب، ت، ث، لتدل بها على التسعة والعشرين حرفا»[63].

4. علو فصاحته، وحسن تأليفه ومباينته لأساليب العرب والتي منها[64]:

أ. الروع الذي أخذ النبي ﷺ وقت نزول القرآن الكريم.

ب. خلو الأسلوب القرآني من الطبع الإنساني المقترن بأساليب العرب.

ج. البلاغة المختصة بالقرآن.

وكل ما سيأتي بعد ذلك من مباحث ذكرها الزركشي داخلة في هذه الأدلة التي ينبغي إيرادها كأحد

(61) خصائص الأسلوب القرآني، أبي بكر البخيت، (ص:63) بتصرف.

(62) المرجع السابق (ص:50) ملخصاً.

(63) المحرر الوجيز، ابن عطية (1/ 82)، وانظر خصائص الأسلوب القرآني، لبخيت (ص62).

(64) انظر للتفصيل: خصائص الأسلوب القرآني، لبخيت (ص: 65-91).

مباحث علم إعجاز القرآن الكريم والتوسع في بيان مضامينها.

4) مسألة التحدي:

بدأ الزركشي بإيراد مسألة التحدي وهي أصل من أصول إثبات المعجزة عند الأشاعرة فقال: «ولـمَّا جاء به ﷺ إليهم وكانوا أفصح الفصحاء ومصاقع الخطباء تحداهم على أن يأتوا بمثله، وأمهلهم طوال السنين فلم يقدروا...»، وهذا القول يوحي بأن التحدي منهج سلكه رسول الله ﷺ منذ بداية الدعوة وتبليغ كلام الله تعالى، وأن التحدي مقصد عنده ﷺ مستمرٌّ طوال السنين؛ ذلك لأن التحدي شرط للإعجاز عند الأشاعرة، وهو ما قرره الباقلاني في قوله: «وليس يكون معجزًا إلا بأن يتحداهم إلى أن يأتوا بمثله، فإذا تحداهم وبان عجزهم صار ذلك معجزًا»[65]، وقال عن المعجزات: «وهي أفعال الله الخارقة للعادة، المطابقة لدعوى الأنبياء وتحديهم للأمم بمثل ذلك»[66]، وغالب من نص على تعريف المعجزة قال: أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم من المعارضة[67]، ولما كان قيدُ التحدي مبنيًّا على أصول اعتقاد الأشاعرة، وليس على الأدلة الشرعية انتقد عدد من العلماء هذا القيد، ومن ذلك قول ابن حزم (ت: 456هـ): «فإن لجؤوا إلى ما ذكره الباقلاني من التحدي قيل لهم: هذا باطل من وجوه: أحدها أن اشتراط التحدي في كون آية النبي آية دعوى كاذبة سخيفة لا دليل على صحتها لا من قرآن ولا من سنة صحيحة ولا سقيمة، ولا من إجماع ولا من قول صاحب، ولا من حجة عقل، ولا قال بهذا أحد قط قبل هذا الفرقة الضعيفة، وما كان هكذا فهو في غاية السقوط والهجنة»[68].

5) التحدي عندما زعم الكافرون أن القرآن مفترى:

كرر الزركشي ذكر التحدي، ولكن بيَّن أنه وقع عندما زعم الكافرون أن القرآن مفترى فقال: «واعلم أن النبي ﷺ تحدى العرب قاطبة بالقرآن حين قالوا: (افتراه)، فأنزل الله ﷻ عليه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾»، فالتحدي لم يقع ابتداء قال ابن تيمية: «فإنّ عامّة معجزات الرسول لم يكن يتحدى بها، ويقول: ائتوا بمثلها، والقرآن إنما تحداهم لما قالوا: إنه [افتراه]، ولم يتحدَّهم به ابتداءً، وسائر المعجزات لم يتحدّ بها، وليس فيما نقل تحدٍّ إلا بالقرآن، لكن قد عُلم أنهم لا يأتون بمثل آيات الأنبياء، فهذا لازمٌ لها، لكن ليس من شرط ذلك أن يقارن خبره»[69].

إن ما ينبغي إيراده عند الحديث عن التحدي بيان

(65) الإنصاف (ص58).

(66) إعجاز القرآن (ص: 251- 252).

(67) الإتقان، للسيوطي (4/ 743).

(68) الفصل في الملل والأهواء والنحل (5/ 5).

(69) النبوات (2/ 794).

أن وقوعه جاء في مقام الرد على معاجزة الكفار لآيات الله، وسعيهم لمغالبة الله ورسوله والمؤمنين، وأنه لون من ألوان إقامة الحجة عليهم وإبطال ظنونهم في أنهم يستطيعون مغالبة الله ورسوله بهذه الافتراءات، وهذا هو المعنى الذي دل عليه قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ [الحج: ٥١]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ ﴾ [سبأ: ٥]، فليس الغرض من التحدي حصر دلالة النبوة في الإعجاز لإثبات صدق القرآن، بل الغرض إبطال مزاعم المعاجزين حين يثْبُت عجزهم عن المعارضة؛ وبذلك تنقطع افتراءاتهم وتنجلي أكاذيبهم؛ ولذا كان آخر ما قال في آيات التحدي: ﴿ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ ﴾ [البقرة: 24]، وإلا فالقرآن آية وبرهان يعلم كل من سمعه أنه ليس كلام بشر، ويعلم يقينًا أنه يعجز على أن يأتي بمثله، كما أن رسول الله يعلم صدق دعواه بأدلة غير المعجزات، وكل من آمن به في أول دعوته لم يكن دليله على صدقه الإعجازَ، فمن عرف أحواله صدق به، قال ابن تيمية:«وجميع الأدلة لا بُدّ أن تُعرف دلالتها بالضرورة؛ فإنّ الأدلة النظرية لا بُدّ أن تنتهي إلى مقدمات ضرورية، وأكثر الخلق إذا علموا ما جاء به موسى، والمسيح، ومحمد، علموا صدقهم بالضرورة.

ولهذا لا يوجد أحدٌ قدح في نبوتهم، إلاَّ أحد رجلين؛ إمّا رجل جاهل، لم يعرف أحوالهم؛ وإما رجل معاند، متبع لهواه، وعامّة من كذّبهم في حياتهم كان معانـدًا؛ فالرؤساء كذّبوهم لئلا تزول رئاستهم، أو مأكلتهم، والأتباعُ طاعة لكبرائهم؛ كما أخبر الله بمثل ذلك في غير موضع من القرآن، لم يكن التكذيب لقيام حجة تدلّ على الكذب»[70].

6) استشكال الزركشي قول أبي محمد مكي بن أبي طالب:

استشكل الزركشي قول أبي محمد مكي بن أبي طالب في قوله تعالى: ﴿ بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ ﴾ [يونس: 39] ولا يظهر وجه استشكال الزركشي؛ لأن مراد مكي أنهم جهلوا بسبب إعراضهم عن القرآن وتكذيبهم به، فلم يتدبروا معانيَه ويفهموا تفسيره، وهو ما يسمى بكفر الجهل والتكذيب، قال حافظ الحكمي: «وإن انتفى تصديق القلب مع عدم العلم بالحق فكفرُ الجهلِ والتكذيب، قال الله تعالى: ﴿ بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ ﴾ [يونس: 39]، وقال تعالى: ﴿ أَكَذَّبۡتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمۡ تُحِيطُواْ بِهَا عِلۡمًا أَمَّاذَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [النمل: 84]»[71]، وقال ابن جزي (741هـ): «﴿ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ ﴾ أي سارعوا إلى التكذيب بما لم يفهموه، ولم يعلموا تفسيره»[72].

ففهم المعاني وتدبرها لا يكون إلا من طالب حق

(70) النبوات (2/ 888- 889).

(71) معارج القبول (2/ 593).

(72) التسهيل (1/ 357).

راغب فيه، أما العلم بإعجاز القرآن وما في نظمه من علو على نظم الخلق فالكافر المعرض المكذب بالقرآن يعلم به؛ ولذا ورد عنهم تعجبهم من القرآن عند سماعه، كما قال الوليد بن المغيرة عندما تلا عليه رسول الله ﷺ: (فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه مني، ولا بقصيده، ولا بأشعار الجنّ، والله ما يشبه الذي يقول شيئًا من هذا...)[73]، ومثله موقف جبير بن مطعم عندما سمع النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴾ [الطور: 35-37]، قال: كاد قلبي أن يطير[74].

7) أوجه إعجاز القرآن:

أورد الزركشي الأوجه المذكورة في إعجاز القرآن فقال: «وإعجاز القرآن ذكر من وجهين: أحدهما: إعجاز متعلق بنفسه. والثاني: بصرف الناس عن معارضته». ثم قرر أنه لا خلاف بين العقلاء أن كتاب الله معجز، إنما الاختلاف فيما وقع فيه إعجازه، ثم شرع الزركشي في بيان الاختلاف في الإعجاز فقال: «واختلفوا في إعجازه، فقيل: إن التحدي وقع بالكلام القديم الذي هو صفة الذات، وإن العرب كُلفت في ذلك مالا تُطيق، وفيه وقع عجزُها، والجمهور على أنه إنما وقع بالدالِّ على القديم وهو الألفاظ».

ورأي الجمهور الذي ذكره الزركشي فيما حكاه أن التحدي الذي وقع في الألفاظ وليس في كلام الله تعالى مبني على رأي جمهور الأشاعرة ومن وافقهم؛ لأن كلام الله عندهم صفة قائمة بالذات، والقرآن حكاية كلام الله تعالى، قال الباقلاني: «إن قال قائل: بينوا لنا ما الذي وقع التحدي إليه؟ أهو الحروف المنظومة؟ أو الكلام القائم بالذات؟ أو غير ذلك؟ قيل: الذي تحداهم به: أن يأتوا بمثل الحروف التي هي نظم القرآن، منظومة كنظمها، متتابعة كتتابعها، مطردة كاطرادها، ولم يتحدَّهم إلى أن يأتوا بمثل الكلام القديم الذي لا مثل له.

وإن كان كذلك فالتحدي واقع إلى أن يأتوا بمثل الحروف المنظومة، التي هي عبارة عن كلام الله تعالى في نظمها وتأليفها، وهي حكاية لكلامه، ودلالات عليه، وأمارات له، على أن يكونوا مستأنفين لذلك، لا حاكين بما أتى به النبي ﷺ»[75].

وقال ابن أبي العز في بيان مسألة افتراق الناس في كلام الله على تسعة أقوال: «وثالثها: أنه معنى واحد قائم بذات الله، هو الأمر والنهي، والخبر والاستخبار، وإن

(73) جامع البيان، للطبري (24/ 24).

(74) صحيح البخاري، كتاب: التفسير، بَابُ قَولِهِ: (وسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) (6/ 139/ ح4854).

(75) إعجاز القرآن (ص: 260).

عبر عنه بالعربية كان قرآنًا، وإن عبر عنه بالعبرية كان توراة، وهذا قول ابن كلاب ومن وافقه، كالأشعري وغيره»[76].

وهكذا نجد الأثر العقدي في تحديد ما وقع فيه التحدي، وفي بيان معنى كلام الله تعالى الذي هو آيات القرآن، والصحيح الذي عليه أهل السنة أن الذي وقع فيه التحدي كلام الله تعالى بلفظه ومعناه.

قال ابن أبي العز: «وإعجازه من جهة نظمه ومعناه، لا من جهة أحدهما فقط، هذا مع أنه قرآن عربي غير ذي عوج بلسان عربي مبين، أي بلغة العربية، فنفي المشابهة من حيث التكلم، ومن حيث النظم والمعنى، لا من حيث الكلمات والحروف، وإلى هذا وقعت الإشارة بالحروف المقطعة في أوائل السور، أي: أنه في أسلوب كلامهم وبلغتهم التي يتخاطبون بها»[77].

إن التحدي - كما دل عليه ظاهر الآية - وقع بطلب مماثلة كلامه ﷻ الذي تكلم به بلا كيفية، ونزل على نبيه وحيًا عن طريق جبريل ﷺ بلسان عربي مبين، فوقع التحدي بطلب مماثلة هذا الكلام المنزل باللسان العربي المبين، وتأويل معنى كلام الله بالكلام النفساني ثم التعامل مع مسألة الإعجاز وفق هذا الفهم منهج يوقع الباحث في إشكالية معرفية بدل أن يصل به إلى حقيقة المعرفة كما بين ذلك ابن أبي العز في قوله: «لا يقال لمن قام به الكلام النفساني ولم يتكلم به: إن هذا كلام حقيقة، وإلَّا للزم أن يكون الأخرس متكلمًا، ولزم ألَّا يكون الذي في المصحف عند الإطلاق هو القرآن ولا كلام الله، ولكن عبارة عنه ليست هي كلام الله، كما لو أشار أخرس إلى شخص بإشارة فهم بها مقصوده، فكتب ذلك الشخص عبارته عن المعنى الذي أوحاه إليه ذلك الأخرس، فالمكتوب هو عبارة ذلك الشخص عن ذلك المعنى، وهذا المثل مطابق غاية المطابقة لما يقولونه، وإن كان الله تعالى لا يسميه أحدٌ أخرسَ، لكن عندهم أن الملَك فهم منه معنى قائمًا بنفسه، لم يسمع منه حرفًا ولا صوتًا، بل فهم معنى مجردًا، ثم عبر عنه، فهو الذي أحدث نظم القرآن وتأليفه العربي، أو أن الله خلق في بعض الأجسام كالهوى الذي هو دون الملك هذه العبارة»[78].

والقول إن كلام الله نفساني، يعني أن المتكلم بالقرآن غير الله تعالى، فيصبح التحدي في دائرة الممكن بدل أن يكون في دائرة المستحيل، ويبطل بذلك التحدي بدل أن يوقع المُتحدَّى في العجز، وتنتفي قيمة طلب المماثلة إذا لم يكن المتكلم بالقرآن هو الله على الحقيقة، وتتحجم أوجه الإعجاز؛ لأن صفة الكلام بالمعنى الذي

(76) شرح الطحاوية (1/ 173)

(77) المرجع السابق (1/ 205).

(78) المرجع السابق (1/ 198).

طرحه الأشاعرة ليس فيه صفات الله ﷻ التي تليق بجلاله وعظمته وعلمه سبحانه، بخلاف إثبات صفة الكلام وفق ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة وفهمه سلف الأمة، وإثبات كلام الله ﷻ على ما يليق بربوبيته وألوهيته ﷻ، من غير تحريف ولا تعطيل ولا تمثيل، فذلك من شأنه أن يصحح مسار الاختلاف في أوجه إعجاز القرآن، فينقله من الخلاف إلى الاختلاف المحتمل، إذ كل قول في الإعجاز مثال له وليس حدًّا في بيانه، فكلام الله تعالى كما وصفه ﷻ: ﴿ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ﴾ [الكهف: 109]، ﴿ وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ [لقمان: 27]، قال السعدي: «أخبر عن سعة كلامه وعظمة قوله، بشرح يبلغ من القلوب كل مبلغ، وتنبهر له العقول، وتحير فيه الأفئدة، وتسيح في معرفته أولو الألباب والبصائر» ...إلى قوله: «وهذا ليس مبالغة لا حقيقة له، بل لما علم تبارك وتعالى، أن العقول تتقاصر عن الإحاطة ببعض صفاته، وعلم تعالى أن معرفته لعباده أفضل نعمة أنعم بها عليهم، وأجل منقبة حصلوها، وهي لا تمكن على وجهها، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله، فنبههم تعالى تنبيها تستنير به قلوبهم، وتنشرح له صدورهم، ويستدلون بما وصلوا إليه إلى ما لم يصلوا إليه، ويقولون كما قال أفضلهم وأعلمهم بربه: (لا نحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك)، وإلا فالأمر أجل من ذلك وأعظم»[79].

وعلى هذا فكل ما قيل في أوجه إعجاز القرآن فهو بعضٌ منه وليس محصورًا فيه، قال ابن تيمية: «وكون القرآن أنه معجزة ليس هو من جهة فصاحته وبلاغته فقط، أو نظمه وأسلوبه فقط، ولا من جهة إخباره بالغيب فقط، ولا من جهة صرف الدواعي عن معارضته فقط، ولا من جهة سلب قدرتهم على معارضته فقط، بل هو آية بينة معجزة من وجوه متعددة..»[80].

8) سبب الإعجاز الذي وقع بسببه التحدي:

قرر الزركشي أن الإعجاز لأمر خارج عن القرآن وذلك راجع إلى اشتراط الأشاعرة في المعجزة أن تكون خارقة للعادة، وهذا الخرق يكون شيئًا خارجًا عن المعجزة، فالعادة كما يقول الباقلاني: «العادة على الحقيقة تكرر علم العالم ووجوه الشيء المعتاد على طريقة واحدة، إما بتجدد صفته وتكرارها، أو ببقائه على حالة واحدة»، وقال: «ويجب أن يعلم أن قولنا في الشيء: (إنه عادة)، ربما وقع على الأمر المعتاد، وربما وقع على الاعتياد له الذي هو الوجود له والعلم به»[81]. فليست العادة عند الأشاعرة السنة المعتادة المنتظمة للمخلوقات، وفق تدبير

(79) تيسير الكريم الرحمن (ص: 651).

(80) الجواب الصحيح (5/ 428).

(81) البيان (ص: 50-51).

الله تعالى وسننه الجارية التي قدرها، فيكون الخارق للعادة هو المخالف للسنن الكونية المعلومة للناس بالضرورة، فإذا جاءت آيات الأنبياء خارقة للسنن علم أن الله أراد تأييدهم وتصديقهم؛ لأنه وحده القادر على خرق تلك السنن، إذ الأشاعرة لا يمكنهم أن يثبتوا مفهوم العادة على هذا المعنى لإنكارهم السببية حيث يرونها تقييدَ قدرة الله تعالى[82]، قال ابن تيمية: «وأما من لا يثبت سببًا، ولا حكمة، ولا عدلًا - وهم الأشاعرة والجهمية والفلاسفة - فإنَّهم يقولون: إنه يخرق عادات، لا لسبب، ولا لحكمة، ويجوّزون أن يقلب الجبل ياقوتًا، والبحر لبنًا، والحجارة آدميين، ونحو ذلك، مع بقاء العالم على حاله»[83]؛ ولذا فإن العادة أمر نسبي، فتكون خارقة في زمن دون زمن، وعند ناس دون آخرين، قال الباقلاني: «واعلموا - أحسن الله إرشادكم - أن العادات على ضروب، فمنها عادة يستوي فيها جميع الناس، وجميع أهل الأعصار، ومنها ما ينفرد به بعض الناس دون بعض، فيكون لهم دون غيرهم، ومنها ما يكون عادة لأهل عصر دون غيرهم»[84]، وعلى هذا فإن خرق العادة ليس خرقًا لحقيقة ثابتة مطردة وهي السنة الجارية في المخلوقات، بل خرق العادة وصفٌ نسبيٌ يختلف الناس فيه، ويلزم من هذا عدم تميز المعجزة عن غيرها، فيدخل في عموم الخوارق السحر؛ لأنه غير معتاد عند عموم الناس، وقد التزم الأشاعرة بهذا القول ثم نظروا في أمر خارج عن حقيقة المعجزة تكون فارقة بين النبي ومدعي النبوة، فاشترطوا شرطين لمعجزة النبي: اقتران معجزة النبي بدعوى النبوة، التحدي واستحالة معارضة معجزة النبي[85]، وكلها أمور خارجَ ذات المعجزة؛ ولذلك قال الزركشي: «فيتعين أن يكون الإعجاز لأمر خارج عن ذلك»، أي خارج عن كون الإعجاز في القرآن لا بالنسبة إلى ذاته، أو عوارضه من الحركات والتأليف، أو مدلوله أو إلى المجموع أو إلى أمر خارج عن ذلك.

إن التحدي بالقرآن ثابت بنصوص القرآن، وغرضُه إسقاط دعوى الخصم وبيان تهافتها، والبحث في أي شيء وقع التحدي به لازم لا قيمة له إلا عند من ألزم نفسه بلوازم فكرية لا دليل عليها.

إن المشركين وصفوا القرآن بأنه مفترى أي مكذوب، وهم طُولِبوا بأن يأتوا بكلام مفترى إن كانوا صادقين، والافتراء لا حقيقة له حتى يقال: لابد من معرفة في أي شيء وقع التحدي، أما المطالبة بمثله فهو

(82) انظر: دلالة المعجزة على صدق النبوة عند الأشاعرة، للقرني (ص: 23، 34 وما بعدها) ملخصا.

(83) النبوات (2/ 870).

(84) البيان (ص: 52).

(85) انظر: دلالة المعجزة على صدق النبوة عند الأشاعرة، للقرني (ص: 37) ملخصًا.

من باب مجارات الخصم لإثبات بطلان أقواله، وليس إقرارًا بصدق دعواه حتى يعين له وجه التحدي، فليس التحدي إلا طريقة سلكها القرآن لإبطال دعوى الافتراء، وزيادة تبكيت لهم، ودعوى لهم بتقوى الله تعالى.

قال الآلوسي (ت1270هـ): «وأما نعت الافتراء فلا يتعلق به غرض يدور عليه شيء في مقام التحدي، وإنما ذكر على نهج المساهلة وإرخاء العنان ولأنه لو عكس الترتيب لربما توهم أن المراد هو المماثلة له في الافتراء، والمعنى فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مماثلة له في البلاغة مختلقات من عند أنفسكم إن صح أني اختلقته من عند نفسي»(86).

9) الأقوال المختلفة في وجوه الإعجاز:

بدأ الزركشي ببيان الأقوال المختلفة في وجوه الإعجاز، فاختار منها القول السادس وهو «أن التحدي إنما وقع بنظمه، وصحة معانيه، وتوالي فصاحة ألفاظه، ووجه إعجازه أن الله أحاط بكل شيء علمًا، وأحاط بالكلام كله علمًا؛ فإذا ترتبت اللفظة من القرآن علم بإحاطته، أي لفظة تصلح أن تلي الأولى، ويتبين المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره، والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول، ومعلوم بالضرورة أن أحدًا من البشر لا يحيط بذلك، وبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة، وبهذا النطق يبطل قول من قال: إن العرب كان في قدرتها الإتيان بمثله، فلما جاءهم النبي ﷺ صُرِفوا عن ذلك وعجزوا عنه».

فهذا النص يدل على أن وجه إعجاز القرآن عند الزركشي عِلم الله تعالى، ومعلوم أن عِلم الله صفة من صفاته غير صفة الكلام، وإن كان كلامه يشتمل على جملة من صفاته كالعلم والحكمة، والعظمة وغيرها، لكن اشتمال كلام الله تعالى على علمه لا يعني نسبة التحدي إلى صفة العلم بدل صفة الكلام وهي الأظهر في تسمية القرآن بهذه الصفة، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: 6].

10) الحجة قامت على العالم بالعرب:

قرر الزركشي أن الحجة قامت على العالم بالعرب؛ إذ كانوا أرباب الفصاحة ومظنة المعارضة، وهذا تقرير لا دليل عليه؛ إذ الحجة تقوم على العالم ببلوغ القرآن لهم وسماعهم كلام الله ﷻ، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ ﴾ [المائدة: 67]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠

(86) روح المعاني (6/ 222).

مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴾ [النمل: 91-92]، والقرآن وإن كان نزل بلسان عربي مبين فإن عجز العرب عن معارضته لا يلزم منه أن يكون عجزهم حجة على العالم، ولا سيما أن العجز أثبته النص لجميع الثقلين أنسهم وجنهم، في كل زمان ومكان العرب والعجم، سواءٌ في فترة قوة العرب في لغتها أو في فترة ضعفهم في اللغة، وإعجاز القرآن ليس في لغة العرب بل في ذات كلام الله وعلو بيانه، والتحدي لا يتعلق بكلام الـمُكذِّب بل يتعلق بكلام الـمُكذَّب به وهو القرآن؛ ولذا قال لهم في آيات التحدي: ﴿ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [يونس: 38]، و[هود: 13]، والقرآن الكريم وإن كان نزل بلسان عربي مبين فهو مختلف عن أساليب العرب وكلامها، قال ابن تيمية: «نفس نظم القرآن وأسلوبه عجيب بديع، ليس من جنس أساليب الكلام المعروفة، ولم يأتِ أحد بنظير هذا الأسلوب، فإنه ليس من جنس الشعر ولا الرجز، ولا الخطابة ولا الرسائل، ولا نظمه نظم شيء من كلام الناس عربهم وعجمهم، ونفس فصاحة القرآن وبلاغته هذا عجيب خارق للعادة، ليس له نظير في كلام جميع الخلق»[87].

فإذا سلمنا بمجال التحدي علمنا أن التحدي وقع فيما لا طاقة للخلق به من صفات الرب ﷻ، ومن هنا يثبت أن القرآن آية صدق لأنه كلام الخالق الذي لا يشبهه أو يماثله كلام المخلوقين، ورسول الله ﷺ عندما بين سبب تميزه بكثرة الاتباع رد ذلك لأن آيته وحيٌ، ولم يرده لعجز العرب عن معارضته، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ)[88]، ولما كان معنى الوحي في الحديث واسعَ الدلالة تعددت أقوال العلماء في شرحها إلى معانٍ اذكر منها ما يأتي:

- قال زكريا الأنصاري (ت: 526هـ): «واختلف في معنى الحديث فقيل: إن نبيًّا أعطي من المعجزات ما كان مثله لمن كان قبله من الأنبياء فآمن به البشر، وأما معجزتي العظيمة الظاهرة فهي القرآن الذي لم يعط أحد مثله؛ فلهذا أنا أكثرهم تبعًا، وقيل: إن الذي أوتيته لا يتطرق إليه تخييل بسحر أو شبهه، بخلاف معجزة غيري، وقيل: إن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم ولم يشاهدها إلا من حضرها بحضرتهم، ومعجزة نبيِّنا ﷺ المستمر إلى يوم القيامة، وقيل: إن القرآن ليس له مثل ولا صورة ولا حقيقة، قال تعالى: ﴿ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ ﴾ [البقرة: 23]، بخلاف معجزات غيره»[89].

(87) الجواب الصحيح (5/ 433).

(88) صحيح البخاري ك: فضائل القرآن، ب: كيف نزل الوحي، (6/ 182/ ح4981).

(89) منحة الباري بشرح صحيح البخاري (8/ 277).

– وقال ابن هبيرة (ت: 560هـ): «وكانت فضيلة رسول الله ﷺ وما منَّ الله به عليه، أن جعل لدينه روحًا ولذة، بحيث تشهد العقول لها لا الإحساس من النور البين، والحكمة العظيمة؛ ولذلك كان أكثرَ تابعًا يوم القيامة؛ لأن شاهده ما يأخذ بالقلوب ويقصر النفوس على الحق»[90].

– وقال البيضاوي (ت: 685هـ): «والمراد بالوحي: القرآن البالغ أقصى غاية الإعجاز في النظم والمعنى، وهو أكثر فائدة وأعم منفعة من سائر المعجزات، فإنه يشتمل على الدعوة والحجة، ويستمر على مر الدهور والأعصار، ينتفع به الحاضرون عند الوحي المشاهدون له، والغائبون عنه والموجودون بعده إلى يوم القيامة على السواء، ولذلك رتب عليه قوله: (فأرجو أن أكون أكثرهم تبعًا يوم القيامة)»[91].

وعلى ذلك فإن القول بأن الحجة قامت على العالم بالعرب قول يرده الدليل، ومبالغة لموقف أهل الضلال من القرآن الكريم، وإلا فإن عامة العرب – ولا سيما بعد فتح مكة – آمنوا بالقرآن وصدقوا به وعلموا علمًا يقينًا بأنه كلام الله، أما الحجة فقد قامت على من أنكر وكذب، وسعى أن يعاجز رسول الله ﷺ والمؤمنين.

11) معجزات الأنبياء تكون بالوجه الشهير في زمن النبي:

قرر الزركشي «أن الحجة قامت في معجزة عيسى بالأطباء، وفي موسى بالسحرة، فإن الله تعالى إنما جعل معجزات الأنبياء بالوجه الشهير أبرع ما تكون في زمن النبي الذي أراد إظهاره، فكان السحر في مدة موسى قد انتهى إلى غايته، وكذا الطب في زمان عيسى، والفصاحة في مدة محمد ﷺ».

وهذا القيد الذي جعله للمعجزات أنها من جنس ما برع فيه القوم راجع لقيد التحدي وقيد العادة الذي وضعه الأشاعرة في تعريف المعجزة؛ ولذا فهم يرون أن التحديَ وقع في النظم وصحة المعنى وكان عجز العرب حجة على من بعدهم لبراعتهم في اللغة، والواقع أن آيات الله التي يؤتيها أنبياءه –كما هي عادته عندما يرسل رسولًا– أن تكون مما انفرد الله ﷻ به، كإحياء الموتى، وإشفاء المرضى، والإخبار بالغيب، وتحويل الجامد إلى حيٍّ ونحوها، مما لا يقدر عليها إلا الله ولا يأتي بها إلا الأنبياء والرسل، ولا تدخل في قدرة البشر وطاقتهم، حتى يثبت أنهم رسل الله حقًّا، ولله حكمته في اختيار نوع الآية، وهذه الحكمة أعظم من تقيدها بما برع فيه القوم، وإن كان ما يبرع فيه القوم أحد الأسباب التي تعين على التصديق بالنبي ﷺ بالنسبة لفئة من المدعوين، ولكن ليس ما يبرعون فيه شرطًا في نوع آيات الأنبياء، ولا سيما

(90) الإفصاح عن معاني الصحاح (6/ 272).

(91) تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة (3/ 457).

أن القوم الذين أرسل لهم الرسول قد يبرع آحادهم في أمر ولا يبرع فيه عامتهم، وقد يتفاوت أفراد المجتمع في جنس ما يبرعون فيه، وإذا قلنا: إن آيات الأنبياء تأتي وفق ما برع فيه القوم للزم القول بالنسبية في خصائص آيات الأنبياء، وهذا أمر لا يستقيم ويدعو للتناقض! ولو كانت الآيات مما برع فيه القوم لضعفت آيات القرآن عن الدلالة على أنها من عند الله تعالى بضعف أهل اللغة فيها بتقادم الزمان، ولكن المشاهد كثرة أتباعه ﷺ مع مرور الزمان، وبقاء التصديق بأن القرآن كلام الله تعالى، ويبقى كل من سمعه يدرك أنه معجز وأنه فوق كلام البشر مع ضعف العلم بلغة العرب عند عموم الناس، وقلة العلماء فيها.

فآيات الأنبياء دلائل صدق على أن المرسل بها مبعوث من عند الله تعالى، بما فيها من الخصائص الدالة على الله تعالى، وليست دلائل عجز المخاطب على مشابهتها حتى يقال: إنها من جنس ما برع فيه المخاطب.

قال ابن تيمية عن موسى ﷺ عندما أمر السحرة بـ«أن يأتوا أولًا بخوارقهم، فلمّا أتت، وابتلعتها العصا التي صارت حية، علم السحرةُ أنّ هذا ليس من جنس مقدورهم، فآمنوا إيمانًا جازمًا، ولما قال لهم فرعون: ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ﴾ [طه: 71-72]، و﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [الأعراف: 121-122]، فكان من تمام علمهم بالسحر: أنّ السحر معتادٌ لأمثالهم، وأنّ هذا ليس من هذا الجنس، بل هذا مختص بمثل هذا؛ فدلّ على صدق دعواه»[92].

12) آيات التحدي:

ذكر الزركشي آيات التحدي أولًا في بداية المبحث، فبدأ بآية هود، ثم يونس، ثم البقرة، ولم يذكر الإسراء والطور ثم كرر ذكر آيات التحدي مفصلة فقال: «اعلم أن الله سبحانه تحداهم أولًا في الإتيان بمثله»، فبدأ بآية الإسراء، ثم ذكر آية هود ثم أورد آية البقرة، ولم يذكر يونس ولا الطور، وتقديم هود على يونس هو الذي عليه جمهور المفسرين كما قال ابن عاشور: «فقال ابن عباس وجمهور المفسرين: كان التحدي أول الأمر بأن يأتوا بعشر سور مثل القرآن، وهو ما وقع في سورة هود، ثم نسخ بأن يأتوا بسورة واحدة كما وقع في سورة البقرة وسورة يونس، فتخطى أصحاب هذا القول إلى أن قالوا: إن سورة هود نزلت قبل سورة يونس، وهو الذي يعتمد عليه»[93].

وقال الزركشي تعليقًا على آية البقرة: «﴿ فَإِن لَّمْ

(92) النبوات (1/ 170).

(93) التحرير والتنوير (12/ 20) وانظر: ترتيب السورة المكية بحسب أولية النزول؛ الزيادة والإحسان، لابن عقيلة (1/ 207-209).

﴿ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ ﴾ مبالغة في التعجيز وإفحاما لهم، (اتقوا النار)، وهذه مبالغة في الوعيد، مع أن اللغة لغتهم والكلام كلامهم، وناهيك بذلك أن الوليد بن المغيرة – لعنه الله – كان سيد قريش وأحد فصحائهم لما سمعه أخرس لسانه، وبلد جنانه، وأطفئ بيانه، وقطعت حجته، وقصم ظهره، وظهر عجزه وذهل عقله».

وإيراد آيات التحدي في مبحث إعجاز القرآن من أهم المسائل في المبحث، وإيرادها في علوم القرآن يتطلب النظر إليها من واقع مقاصد القرآن ومن واقع السياق الذي وردت فيه.

13) التحدي وقع للإنس دون الجن:

أشار الزركشي إلى أن التحدي وقع للإنس دون الجن؛ لأنهم ليسوا من أهل اللسان العربي، ووجَّه ﷺ ذكر الجن في آية التحدي في سورة الإسراء إلى أنه من باب تعظيم إعجاز القرآن الكريم؛ لأن الهيئة الاجتماعية لها من القوة ما ليس للأفراد، وهذا التعليل مبني على أن الحجة قامت على العالم بالعرب؛ إذ كانوا أرباب الفصاحة ومظنة المعارضة.

والواقع أن التحدي غرض من أغراض محاجة المنكرين لكتاب الله تعالى، ومادام القرآن يخاطب الثقلين كما قال تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فالتكذيب وارد من كلَا الثقلين كما أن الدعوة بالقرآن مكلف بها الثقلان كلاهما، ولاريب أن أقوى الأدلة في رد المكذب بالقرآن وأعظم الحجج الدامغة له التحدي بمماثلة كلام الله تعالى، وتخصيص التحدي بالإنس دون الجن تخصيص لا دليل عليه، ولكنه لازم التزم به من قيد نفسه بوجه من وجوه الإعجاز، قال ابن تيمية: « فعم بالخبر جميع الخلق معجزا لهم، قاطعا بأنهم إذا اجتمعوا كلهم، لا يأتون بمثل هذا القرآن، ولو تظاهروا وتعاونوا على ذلك، وهذا التحدي والدعاء هو لجميع الخلق، وهذا قد سمعه كل من سمع القرآن وعرفه الخاص والعام» (94).

14) الأعجمي ومن ليس ببليغ لا يمكنه أن يعلم إعجاز القرآن إلا استدلالًا:

يرى الزركشي أن الأعجمي ومن ليس ببليغ لا يمكنه أن يعلم إعجاز القرآن إلا استدلالًا، فأما البليغ الذي أحاط بمذاهب العرب فإنه يعلم من نفسه ضرورة عجزه وعجز غيره عن الإتيان بمثله، هذا بناء على أن الإعجاز في لفظه ونظمه ومعناه، أما عند من يرى أن هناك وجوهًا أخرى للإعجاز فهو يعلم الإعجاز من ذلك الوجه؛ ولذا قال الخطابي: «قلت في إعجاز القرآن وجهًا آخر ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلامًا غير القرآن منظومًا ولا منثورًا، إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في

(94) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (5/ 426).

حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق، وتغشاها الخوف والفرق، تقشعر منه الجلود وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها»[95].

خلاصة الدراسة التحليلية:

إن من الملاحظ في مبحث الإعجاز تأثرَ الزركشي بالاتجاه العقدي في عرض المسائل؛ مما يدعو إلى تحرير مبحث الإعجاز بالنظر إليه كعلم من علوم القرآن، وحرصًا على أن يكون موضوع الإعجاز منبثقًا من القرآن الكريم نفسه بعيدًا عن التوجهات الفكرية اقتضى ذلك اقتراح جملة من الضوابط الآتية:

– الضابط الأول: مراعاة دلالة مصطلح الإعجاز في القرآن الكريم، والسنة، وكلام السلف وتجنب المناهج الكلامية في بيان المصطلح.

– الضابط الثاني: التمييز بين إعجاز القرآن وبين أوجه إعجازه.

– الضابط الثالث: تحديد وظيفة إعجاز القرآن بالنسبة للقرآن الكريم ومكانته بالنسبة لعلوم القرآن وتوظيف الآيات التي أشارت إلى كلام الله تعالى وسماعه في بحث علم الإعجاز كمفردة من مفردات علوم القرآن..

– الضابط الرابع: بيان أدلة إعجاز القرآن من القرآن الكريم، وإبراز معنى التحدي بالقرآن كغرض من أغراض محاجة المنكرين له.

– الضابط الخامس: الكشف عن الفرق بين اللسان العربي المبين الذي نزل به القرآن، وبين اللغة العربية التي يتكلم بها العرب فترة نزول القرآن الكريم.

– الضابط السادس: أوصاف القرآن في القرآن الكريم ودلائلها على إعجاز القرآن، لا سيما صفتا العظمة والعزة.

***

النتائج والتوصيات

1) أبرز نتائج الدراسة:

1 – تأثر الزركشي بالاتجاه الأشعري واعتماد أقوال الباقلاني في مسائل إعجاز القرآن الكريم.

2 – أن مدار العجز عن مماثلة القرآن هو عظمة وجلال كلام الله تعالى، وعلو صفاته عن الشبيه والنظير، وليس مداره كلام المكلفين.

3 – شروط المعجزة عند الأشاعرة لوازم لا دليل عليها، وقد أدت إلى إشكالات معرفية.

4 – أن نزول القرآن الكريم بلسان عربي مبين من دلائل رحمة الله وتيسيره للذكر والهداية، وليس لإعجاز العرب.

(95) بيان إعجاز القرآن (ص: 70).

5- أن حجية القرآن الكريم أعمُّ من مفهوم إعجاز القرآن.

6- غياب تعريف إعجاز القرآن عند الزركشي.

7- أن عجز العرب عن المعارضة ليس حجة على غيرهم، فطلب المماثلة من كل من ادعى أن القرآن مفترى مطالبة واردة في آية محكمة، والعمل بها باقٍ مادامت شبهة الافتراء باقية ومتجددة في كل عصر.

2) أهم توصيات الدراسة:

1- إعداد دراسة خاصة بإعجاز القرآن كمبحث من مباحث علوم القرآن.

2- إعداد مشروع بحثي في تحقيق كتاب البرهان في علوم القرآن.

3- تطوير مناهج البحث في علوم القرآن.

4- العناية بالدراسات النقدية لكتب التراث.

5- العناية بتأصيل منهج البحث البيني في الدراسات القرآنية من خلال كتاب البرهان للزركشي.

هذا والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

***

قائمة المصادر والمراجع

أحكام القرآن. ابن العربي، محمد بن عبد الله أبو بكر (ت: 543هـ)، راجعه: محمد عطا، ط3، بيروت: دار الكتب العلمية، 1424هـ-2003م.

إتحاف السادة المتقين بشرح علوم الدين. الزبيدي، محمد بن محمد (ت: 1205هـ)، د.ط، بيروت: مؤسسة التاريخ العربي، 1414هـ- 1994م.

الإتقان في علوم القرآن. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت: 911هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، بيروت، صيدا: المكتبة العصرية، 1426هـ-2006م.

الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد. الجويني، عبدالملك ين عبدالله (ت: 478هـ)، تحقيق: أحمد السايح، وتوفيق وهبة، ط1، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1430هـ-2009م.

إعجاز القرآن الكريم عند الزركشي (ت: 794هـ) من خلال كتابه البرهان في علوم القرآن دراسة وتعليق. قاري ياسين، الجمعية المصرية للقراءة والمعرفة، كلية التربية، جامعة عين شمس، ع/ م111، 2011م، 138-175.

إعجاز القرآن. الباقلاني، محمد بن الطيب أبو بكر (ت: 403هـ)، تحقيق: السيد أحمد صقر، ط5، مصر: دار المعارف، 1997م.

الأعلام. الزِّرِكْليّ، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي (ت: 1396هـ)، ط15، د.م: دار العلم للملايين،، 2002م.

الإفصاح عن معاني الصحاح. ابن هُبَيْرَة، عون الدين يحيى بن هُبَيْرَة بن محمد أبو المظفر (ت: 560هـ)، تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد، د.ط، الرياض: دار الوطن، 1417هـ.

اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم (ت: 728هـ)، تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل، ط7، بيروت: دار عالم الكتب، 1419هـ - 1999م.

أقوال الحسن بن نصر الجرجاني في التفسير من أول سورة الفاتحة إلى

آخر سورة المؤمنون جمع ودراسة. التهامي هدى محمد، رسالة ماجستير، السعودية، كلية التربية، جامعة الملك سعود، 1436هـ.

إمتاَعُ الفُضَلاء بـتَراجِم القـرّاء فِـيما بَعـدَ القَـرن الثـامِن الهِجـري. الساعاتي، إلياس بن أحمد حسين، ط1، د.م: دار الندوة العالمية، 1421هـ - 2000م.

إنباء الغمر بأبناء العمر. ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي (ت: 852هـ)، تحقيق: د. حسن حبشي، د.ط، مصر: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 1389هـ - 1969م.

الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به. الباقلاني، محمد بن الطيب أبو بكر (ت: 403هـ)، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، ط2، مصر: المكتبة الأزهرية للتراث، 1421هـ - 2000م.

البرهان في علوم القرآن. الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله (ت: 794هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، مصر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، 1376هـ - 1957م.

بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز. الفيروزآبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب، تحقيق: محمد علي النجار، د.ط، بيروت: المكتبة العلمية، د.ت.

البلاغة القرآنية دراسة في جماليات النص. درويش، د. أحمد؛ وجدوع، د. عزة، ط1، الرياض: مكتبة الرشد، 1421هـ - 2010م.

بيان إعجاز القرآن. الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد (ت: 388هـ)، تحقيق: محمد خلف الله وآخرون، ط3، مصر: دار المعارف، 1976م.

البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر والنارنجات. الباقلاني، محمد بن الطيب أبو بكر (ت 403هـ)، تحقيق: مكارثي، د.ط، بيروت: المكتبة الشرفية، 1958م.

تاريخ جرجان. الجرجاني، أبو القاسم حمزة بن يوسف (ت: 427هـ)، تحقيق: تحت مراقبة محمد عبد المعيد خان، ط4، بيروت: عالم الكتب، 1407هـ - 1987م.

تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة. البيضاوي، ناصر الدين عبد الله بن عمر (ت: 685هـ)، تحقيق: لجنة مختصة بإشراف نور الدين طالب، د.ط، الكويت: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1433هـ - 2012م.

التسهيل لعلوم التنزيل. ابن جزي، أبو القاسم محمد بن أحمد (ت: 741هـ)، تحقيق: عبد الله الخالدي، ط1، بيروت: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، 1416هـ.

تفسير الإمام الزركشي من أول سورة الفاتحة إلى نهاية سورة المائدة جمعًا ودراسة. الطويان، يحيى بن صالح، رسالة الدكتوراه، السعودية، كلية القرآن الكريم والدراسات الإسلامية الجامعة الإسلامية المدينة المنورة، عام 1430-1431هـ.

تهذيب اللغة. الأزهري، محمد بن أحمد(ت: 370هـ)، تحقيق: محمد عوض مرعب، ط1، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 2001م.

التوقيف على مهمات التعاريف. المناوي، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف، ط1، القاهرة: عالم الكتب، 1410هـ - 1990م.

تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. السعدي، عبد الرحمن بن ناصر (ت: 1376هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ط1، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1420هـ - 2000م.

جامع البيان في تأويل القرآن. الطبري، محمد بن جرير (310هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط1، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1420هـ - 2000م.

الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم (ت: 728هـ)، تحقيق: علي بن حسن، وآخرون، ط2، السعودية: دار العاصمة، 1419هـ - 1999م.

حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت: 911هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، مصر: دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، 1387هـ - 1967م.

خصائص القرآن في القرآن. المنتار، محمد، مجلة ترتيل، الرابطة المحمدية، مركز الدراسات القرآنية، ع2، 1435هـ.

خصائص الأسلوب القرآني. البخيت، أبي بكر محمد، ط1، الرياض: كرسي القرآن الكريم جامعة الملك سعود، 1436هـ.

الدر المصون في علوم الكتاب المكنون. السمين الحلبي، أبو العباس أحمد بن يوسف (ت: 756هـ)، تحقيق: الدكتور أحمد محمد الخراط، د.ط، دمشق: دار القلم، د.ت.

الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة. ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي (ت: 852هـ)، تحقيق: محمد عبد المعيد ضان، ط1، حيدرآباد، الهند: مجلس دائرة المعارف العثمانية، 1392هـ - 1972م.

دلالة المعجزة على صدق النبوة عند الأشاعرة قراءة نقدية. القرني، عبد الله، ط1، د.م: مركز تكوين للبحوث والدراسات، 1435هـ - 2014م.

روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. الآلوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني (ت: 1270هـ)، تحقيق: علي عبد الباري عطية، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1415هـ.

السلوك لمعرفة دول الملوك. المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر (ت: 845هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1418هـ - 1997م.

شذرات الذهب في أخبار من ذهب. ابن العماد الحنبلي، عبد الحي بن أحمد بن محمد (ت: 1089هـ)، تحقيق: محمود الأرناؤوط، ط1، دمشق، بيروت: دار ابن كثير، 1406هـ - 1986م.

شرح العقيدة الطحاوية. ابن أبي العز، صدر الدين محمد بن علاء الدين عليّ بن محمد (ت: 792هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعبد الله بن المحسن التركي، ط10، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1417هـ - 1997م.

صحيح البخاري. البخاري، محمد بن إسماعيل، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط1، لبنان: دار طوق النجاة، 1422هـ.

صحيح مسلم. مسلم بن الحجاج أبو الحسن القُشَيريّ النيسابوري (ت: 261هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، د.ط، بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت.

طبقات الشافعية. ابن قاضي شُهْبة، أبو بكر بن أحمد بن محمد (ت: 851هـ)، تحقيق: د. الحافظ عبد العليم خان، ط1، بيروت: عالم الكتب، 1407هـ.

طبقات المفسرين. الداودي، محمد بن علي (ت: 945هـ)، د.ط، بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت.

طبقات المفسرين. الأدنه وي، أحمد بن محمد، تحقيق: سليمان بن صالح الخزي، ط1، السعودية: مكتبة العلوم والحكم،

1417هـ - 1997م.

الفصل في الملل والأهواء والنحل. بن حزم، أبو محمد علي بن أحمد (ت: 456هـ)، د.ط، القاهرة: مكتبة الخانجي، د.ت.

كتاب التعريفات. الجُرْجَاني، علي بن محمد (ت: 816هـ)، تحقيق: جماعة من العلماء بإشراف الناشر، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1403هـ - 1983م.

الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية. الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى (ت: 1094هـ)، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، د.ط، بيروت: مؤسسة الرسالة، د.ت.

لسان العرب. ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم بن على (ت: 711هـ)، ط4، بيروت: دار صادر، 1414هـ.

المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب (ت: 542هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1422هـ.

المصباح المنير في غريب الشرح الكبير. الفيومي، أحمد بن محمد (ت: نحو 770هـ)، د.ط، بيروت: المكتبة العلمية، د.ت.

معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول. الحكمي، حافظ بن أحمد (ت: 1377هـ)، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر، ط1، الدمام: دار ابن القيم، 1410هـ - 1990م.

معجم مقاييس اللغة. ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس (ت: 395هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط1، بيروت، دار الجيل، عام 1411هـ - 1991م.

المفردات في غريب القرآن. الراغب، الحسين بن محمد الأصفهاني (ت: 502هـ)، تحقي: صفوان عدنان الداودي، ط1، دمشق، بيروت: دار القلم، الدار الشامية، 1412هـ.

مقالات في علوم القرآن وأصول التفسير. الطيار، مساعد بن سليمان، د.ط، الرياض: مركز تفسير للدراسات القرآنية، 1436هـ - 2015م.

مكي ابن أبي طالب وتفسير القرآن. فرحات، أحمد حسن، ط1، الأردن: دار عمار، 1418هـ - 1997م.

مناهل العرفان في علوم القرآن. الزُّرْقاني، محمد عبد العظيم (ت: 1367هـ)، ط3، بيروت: المكتبة العصرية، 1424هـ - 2004م.

منحة الباري بشرح صحيح البخاري. الأنصاري، زكريا بن محمد (ت: 926هـ)، تحقيق: سليمان بن دريع العازمي، ط1، الرياض: مكتبة الرشد، 1426هـ - 2005م.

النبوات. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم (ت: 728هـ)، تحقيق: عبد العزيز بن صالح الطويان، ط1، الرياض: أضواء السلف، 1420هـ - 2000م.

النكت في إعجاز القرآن. الرماني، علي بن عيسى (ت: 384هـ)، تحقيق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، ط3، مصر: دار المعارف، 1976م.

الواضح في علوم القرآن. البغا، مصطفى ديب؛ مستو، محيى الدين ديب، ط2، دمشق: دار العلوم الإنسانية، 1418هـ - 1998م.

الوافي بالوفيات. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله (ت: 764هـ)، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، د.ط، بيروت: دار إحياء التراث، 1420هـ - 2000م.

* * *